

د. محمد سعيد أحمد الشير

التبهيديك
في دراسة العقيدة الإسلامية

د. محمد سعيد محمد السبيعي

التبهيدي

في دراسة العقيدة الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

حقوق الطبع محفوظة للتأليف

دار الطباعة المحمدية
٤٥٥، بئر نورة، الرياض، المملكة العربية السعودية

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ..

أما بعد :

ففي عام (١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م) صدر لي كتاب « في نور العقيدة الإسلامية » يضم أربعاً مائة صفحة تقريباً ، ويسر الله له القبول وقت بتدريسه في جامعة الأزهر ، والمعهد العالي للدراسات الإسلامية ، وقروته وزارة الأوقاف بتدريسه في مراكز إعداد الدعاة على مستوى الجمهورية ..

وأصدر الإمام الراحل فضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر السابق أمراً مباشراً بتوفير كمية من هذا الكتاب لتوزيعها على أئمة العالم الإسلامي في دوراتهم التدريبية التي يعقدها لهم الأزهر الشريف ..

ثم شاء الله تعالى أن أذهب معاراً إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة عام (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م) فدرسته هناك للطلاب والطالبات .. وكان الكتاب في كل هذه المراحل يصور بتقدير الحاجة بعدما نفذت طبعته الأولى ..

ورغب إليّ بعض الأصدقاء أن أخرج الكتاب في طبعة جديدة فاستعنت بالله وأعدت النظر فإذا بأبحاث تنفتح ، ومسائل تضاف ، وموضوعات تستكمل ، وأفكار تتوالد ، وآراء تتجدد ..

وكان فضل الله كبيراً فجاءت الدراسات في شكلها الجديد على أربعة أجزاء ، هي :

- ١ - التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية .
 - ٢ - الإلهيات في العقيدة الإسلامية .
 - ٣ - النبوات في العقيدة الإسلامية .
 - ٤ - السميات في العقيدة الإسلامية .
- وليسمح لي القارئ الكريم أن أقدم له الجزء الأول ، فقد جاء
- بتوفيق الله - متضمنا خمسة مباحث ، هلى النحو التالى :

المبحث الأول :

بين يدي الموضوع

قدمت بيان أهمية دراسة العقيدة ، والمباحث التى يقوم عليها هذا العلم ، والأسماء التى تطلق عليه ..
وأكدت أن دراسة العقيدة هى أول الواجبات لدى الإنسان العاقل ،
وأن هقيدة المرء هى ميزان سلوكه وأخلاقه ، وأن الوازع الدينى هو
معيار الاستقامة فى هذه الحياة .

المبحث الثانى :

نشأة علم العقيدة وتطوره

وقسمت هذه النشأة وذلك التطور إلى مراحل هى :

- ١ - مرحلة العهد النبوى .
- ٢ - مرحلة الصراع العسكرى .
- ٣ - مرحلة الصراع السياسى .
- ٤ - مرحلة الصراع الفكرى .
- ٥ - مرحلة العصر الحديث .

وختتمت بكلمة هامة في أذن كل داعية بأن لا يعيب بعضنا على بعض في إطار ضوابط الاجتهاد ومعالم الفكر الراشد.

ونبهت إلى أن الخطر الذي يتهدد العقيدة الإسلامية اليوم ليس من داخل الفرق الإسلامية، وإنما من التيارات الواحفة والمذاهب الهدامة، الوافدة التي تسرى مع الهواء، وتتشكل حسب الظروف والأحوال، ويتمثل ذلك في الثالوث الحديث :

- الخطر الصهيوني .
- الفكر المادي .
- اليسار الإسلامي الموعوم .

وقد أفرخ هذا الثالوث الانحلال الخلقى وعبادة الشيطان ..

المبحث الثالث :

الإسلام وتقرير العقائد

قدمت منهج الإسلام في تقرير العقائد من خلال شرح هذه الموضوعات :

- المعجزة العقلية لسيدنا محمد ﷺ .
- أصول التفكير في القرآن المجيد .
- المعرفة والتقليد لدى علماء المسلمين .
- مصادر العقيدة في الإسلام .
- الحكم وأنواعه .

وظهر بوضوح أن القرآن المجيد قرر عقائد الإيمان كلها مدعومة بالحجة والبرهان، وأن الشعار الذي رفعه القرآن في حياجه مع المخالفين هو :

«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» (١).

وبينت أن العقيدة يحكمها العقل ، ويصح مساورها الوحي ، وأن مسألة الإيمان والكفر ترتبط بما كان قطعي الثبوت والدلالة معاً ، فإن فقد القطع في أحدهما فليس هناك عقيدة يترتب عليها الإيمان والكفر ..

المبحث الرابع :

خصائص العقيدة الإسلامية

إن العقيدة الإسلامية تلتخص في كلتين اثنتين هما :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله

وهذه العقيدة من الوضوح واليسر ، ومن العمق والحكمة ، ومن الصدق والحق ما يجعلها تسرى في كيان الإنسان سريان الدم في العروق ، وتتغلغل في أعماقه فتستقر في قرار مكنين من عقله وقلبه ..
فهي صوت الفطرة ، ودعوة الأنبياء ، والدين الخالص لله ...

المبحث الخامس :

قراءة في كتب العقيدة

وقد اخترت نماذج أربعة هي :

- ١ - التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة المتوفى ٣١١ هـ .
- ٢ - المواقف في علم الكلام .. للإمام هضد الدين الإيجي المتوفى ٧٥٦ هـ .

(١) سورة النمل الآية ٦٤

المبحث الأول

بين يدي الموضوع

- أهمية دراسة علم العقيدة
- مباحث علم العقيدة
- أسماء علم العقيدة

أهمية دراسة علم العقيدة

إن دراسة العقيدة هي أول الواجبات لدى الإنسان العاقل ، فليس بالخبر وحده يعيش الإنسان ، وعقيدة المرء هي ميزان سلوكه وأخلاقه ، والوازع الديني هو معيار الاستقامة في هذه الحياة .

وإن نقطة البدء في كل حضارة هي العقيدة التي تحدد الهدف وتحكم السلوك وتوجه المسيرة .

وقد ذكر علماءنا رضى الله عنهم في مفتتح دراساتهم عن العقيدة الإسلامية الفائدة المرجوة من هذه الدراسة .. وقال عضد الدين الإيجي وهي أمور :

الأول : الترقى من خضوض التقليد إلى ذروة الإيقان « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين آمنوا العلم درجات » .

الثاني : إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحججة ..

الثالث : حفظ قواعد الدين من أن تزولها شبه المبطلين .

الرابع : أن تبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها ، وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

الخامس : صحة النية والاعتقاد . إذ بها يرجى قبول العمل ، وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين^(١) .

(١) المواقف ص ٨ ط بيروت .

ولتفصيل ذلك نقول :

١ - العلم باقّه تعالى أشرف العلوم :

ميز الله تعالى الإنسان بالعقل وكرمه بالدين وأعلى درجته بالعلم ،
والإنسان جسم وروح ، وغذاء الجسم فيما قسده الله على الأرض من
أقوات ، وغذاء الروح فيما شرع الله من هدى وما أنزل من وحى .

وإذا كان الإنسان يسعى في مناكب الأرض يتتقى فضل الله في الرزق
فواجب عليه أن يفكر ويتأمل ليدرك صنع الله الذي أتقن كل شيء وليصل
إلى حقيقة الحقائق وكبرى اليقنيات وهي أنه لا إله إلا الله ...

فالإيمان القائم على العلم هو الذي يسمو بالإنسان ويرقى به إلى الكرامة
الحقيقية ، وينمعه الوجود المتميز عن سائر المخلوقات .

وقد أعلى الله منزلة العلماء فقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة
فقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط
لا إله إلا هو العزيز الحكيم » (١) .

وخصر الله العلماء بالخشية فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٢)
فعل قدر معرفة الإنسان بربه تكون خشيته منه سبحانه .

وميز القرآن أهل العلم فقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين
أوتوا العلم درجات » (٣) .

وجاءت الأحاديث الشريفة على هذا المتوال فجعلت الفقه في الدين

(١) سورة آل عمران - الآية ١٨

(٢) سورة فاطر - الآية ٢٨

(٣) سورة المجادلة - الآية ١١

من أجل النعم على عباد الله، فقال النبي ﷺ - « من ردا الله به خيراً يفقهه في الدين » .

وجعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - العلم مجالاً للتنافس الشريف فقال: « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على مملكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » .

ومن هنا كان طلب العلم فريضة، وكان طالب العلم معاناً من الله، فعن أن النوراني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع... » .

وقد العلم وذرورة سنامه ما يتصل بالله جل جلاله ؛ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، واليوم الآخر وما فيه من حساب وسؤال وجنة ونار، وشرف العلوم بشرف موضوعاتها .. فاقه أعلى وأجل .

٢ - بيان العقيدة الصحيحة وإقامة الحججة عليها :

يتحمل المسلم عقيدته لنفسه ولغيره، فهو يوقن بها عن علم ويلتزمها عن بصيرة، فالإسلام دعوة عالمية تواجه العقائد المختلفة والمذاهب المتباينة .

وعلم العقيدة تتأكد أهميته في جانبين :

١ - بناء عقيدة المسلم وتوضيح جوانبها وبيان محاسنها .

٢ - إقامة الحججة على المخالفين، وذلك بأن يقوم العلماء بدراسة العقائد المختلفة الفاسدة لبيان زيفها وإبطال مضمونها، وتقديم العقيدة الإسلامية مؤيدة بالدليل مدعمة بالبرهان حتى يستطيع الناس تصحيح عقائدهم وتنقطع أعذارهم .

فإن الله تعالى قد ربط التكليف ببعثة الرسل وبلوغ الدعوة على وجهها الصحيح.. فقال جل شأنه : «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (١).
وقال سبحانه : «وسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (٢).

٣ - مواجهة شبهات المبطلين :

ونحن نواجه طوائف البشر في عقائدهم الفاسدة ، ونقدم لهم عقيدة الفطرة النقية لن يدعنا شياطين الإنس دون شبهات وأباطيل في محاولات يائسة لصد الدعوة والوقوف في وجهها .
ولهذا يتأكد على العالم المسلم أن يتبأ لرد الشبهات وحفظ قواعد الدين من أن تزولها أباطيل الأعداء .

وقد يتوجس البعض من الخوض في الشبهات بحجة إفسادها للعقائد ، وأن الفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها ، ولكن واجب حراس العقيدة وعلماؤنا أن يواجهوا هذه الشبهات ويزيلوها بالبينات حتى لا تمرى في الظلام وتسررب إلى عقول العامة وقلوب الناشئة ، فلكل مقام مقال ...

٤ - علم العقيدة أساس العلوم الشرعية :

القرآن المجيد محفوظ في الصدور ، مدون في السطور ، متواتر في النقل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهى الله لسنة نبيه ﷺ من دونها وحفظها ، ونشأت العلوم الشرعية حول الكتاب والحنة تفسيراً وشرحاً واستنباطاً ، وتواكبت علوم كثيرة لخدمة العلوم الشرعية كعلوم اللغة العربية وآدابها .

(١) سورة الإسراء الآية ١٥

(٢) سورة النساء الآية ١٦٥

وحرص المسلم على دراسة كل هذه العلوم الأصلية والفرعية انطلاقاً من الأمر الإلهي الأول: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» .

لكن هذه العلوم الشرعية إنما تتقبل بناء على صدق العقيدة في أن القرآن كلام الله وأن الحديث كلام رسول الله وأن أحكام الفقه مستنبطة من الوحي المنزل .

فلا تفسير بغير عقيدة أن الله هو الذي نزل القرآن ، ولا حديث بغير عقيدة أن محمداً رسول الله ، ولا عبادات ومعاملات بغير عقيدة أن المعبود بحق هو الله جل جلاله .. فمعرفة المعبود بالجلال والكمال مقدمة لمعرفة العبادة بالشروط والأحكام .

هـ - العقيدة وإخلاص النية :

إن الأخلاق والعبادات والمعاملات وأعمال الخير كلها وخصال المعروف بأجمعه إنما يثاب عليها المرء في الآخرة وتتقبل منه عند الله هو وجل إذا انطلقت من إيمان صحيح وقامت على عقيدة صادقة ، ودفع إليها يقين بقاء الله .

فلا عمل بغير إيمان .

والنية هي مدار صحة العمل .

والإخلاص هو أساس القبول .

قال الله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (١) .

وقال جل شأنه : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٢) .

(١) سورة البينة : الآية هـ (٢) سورة النساء : الآية ١١٤

وأكد القرآن المجيد أن أعمال الكافرين مردودة عليهم ولا ثواب لهم عنها فقال : « وقد منا إلى ما حملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » (١) .

وقيل في معنى الهباء المنثور أنه شعاع الشمس إذا دخل الكوة ، أو ورق الشجر اليابس إذا ذرته الريح ، أو الوطاد ، وقال الإمام ابن كثير في تفسيره : وحاصل هذه الأقوال التبيه على مضمون الآية وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجهل ولا يظلم أحدا إذا هي لا شيء بالكيفية ، وشبهت في ذلك بالشئ التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكيفية .

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر من آية فقال جل شأنه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون على كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » (٢) .

وفي تشبيه آخر بليغ يقول سبحانه وتعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فإنه من نور » (٣) .

والسراب هو ما يرى في الفلاة وقت شدة الحر أنه الماء الجاري فإذا قرب منه الناظر لم يجد شيئا .

والقيعة هي الأرض المستوية المنبسطة وفيها يكون السراب .

(١) سورة الفرقان — الآية ٢٣

(٢) إبراهيم — الآية ١٨

(٣) النور — الآية ٤٠

وأعمال الكافرين نوعان: نوع يفعله الكافر بحسبه خيراً كصلة رحم وإغاثة ملهوف وهذا هو الذي يشبه بالسراب .

ونوع يفعله الكافر من سلوكيات الإثم والفجور وهذا هو الذي يشبه بالظلمات بعضها فوق بعض .. فظلمة السلوك مع ظلمة الاعتقاد أطبقت على الكافر تخسر الدنيا والآخرة .

وجاء في صحيح الحديث ما يؤكده هذا المعنى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله إن ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقول الضيف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال: لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

وروى الإمام أحمد أن عدى بن حاتم الطائي قال : يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم ، ويفعل ويفعل ، فهل له في ذلك ؟ يعني من أجر ، قال عليه الصلاة والسلام : إن أباك طلب شيئاً فأصابه ، وفي رواية : إن أباك أواد أمراً فأدركه .. يعني الذكرك .

إن إخلاص النية وصحة العمل مرتبط بصدق العقيدة وصفاء القلب الموصول بالله عز وجل .. ولن يتحقق ذلك إلا بعلم العقيدة ومعرفة أصوله العينية ولهذا جاء في صحيح الحديث : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

فسمادة الدنيا والآخرة مرهونة بالإيمان والعمل الصالح .

• • •

مباحث علم العقيدة

مباحث علم العقيدة تنتظم أموراً جوهرية هي :

- ١ - الإيمان بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته المقدسة .
 - ٢ - الإيمان بالملائكة الكرام البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .
 - ٣ - الإيمان بالكتب المنزلة لهداية البشر وليقوم الناس بالقسط .
 - ٤ - الإيمان بالرسول والأنبياء الذين اصطفاهم الله من خلقه مبشرين ومنقذين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل .
 - ٥ - الإيمان باليوم الآخر ، يوم الفصل بين الناس ، حين يقومون لرب العالمين ، وتجد كل نفس ما قدمت وأخرت .
- وقد اصطلح العلماء على تقسيم هذه الأمور إلى مباحث ثلاثة هي :

الإلهيات :

ويتعلق بها ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الله تعالى ، وترتبط بها أبحاث تتعلق بالقضاء والقدر والحسن والقبح والصلاح والأصلح والجبر والاختيار .

النبوات :

ويتعلق بها ما يجب وما يجوز وما يستحيل في حق الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وترتبط بها أبحاث تتعلق بالمعجزات والكرامات وخوارق العادات المختلفة .

— السمعيات :

وهي الأمور التي تتلقى بالسمع من المعصوم، وتدخل في دائرة الجواز العقلي، وتدور حول الملائكة والجن والبعث والشفاعة والميزان والصراط والجنة والنار .

وكثير من هذه المباحث ليس عقيدة يتوقف عليها الإيمان والكفر ، فهي أمور اجتهادية ، يجوز فيها الخلاف وتعدد حولها الآراء بناء على وضوح الدليل وصفاء الفهم ، وقوة التأمل ، وحسن النية ...

- فموضوع الصفات والتأويل فيها أو التفويض .
- وموضوع رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة .
- وموضوع الفرق بين النبي والرسول .
- وموضوع التفاضل بين الأنبياء والملائكة .
- وموضوع الشفاعة لأهل الكبائر في الآخرة .
- وموضوع حقيقة الوزن والميزان يوم الحساب .

وموضوعات عدة مشابهة يجوز فيها الاجتهاد وتعدد الآراء ، وهي أمور ملحقة بالعقيدة كعلم وليست من صلب العقيدة كدين .. فإن العقيدة حددها الله تعالى في قوله :

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، ففرانك ربنا ، وإليك المصير ، (١) » .

وبينها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور، عندما جلس إلى النبي الكريم وسأله: ما الإسلام؟ قال عليه الصلاة والسلام:

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً.

ثم سأله عن الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، ثم سأله عن الإحسان فقال عليه الصلاة والسلام: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك... (١).

هذا وهناك اتجاه ينتسب إلى السلف يدرس العقيدة على أساس تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أنواع:

١ - توحيد الربوبية ويعني الإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومالِكه، وأنه سبحانه الخالق المدبر.

٢ - توحيد الأسماء والصفات ويعني الإيمان بما سمي الله به نفسه ووصفه به رسوله، وإثباته على وجه يليق بالله تعالى.

٣ - توحيد الألوهية ويعني إفراد الله تعالى بالعبادة.

ويركز أصحاب هذا الاتجاه على توحيد الألوهية ويرونه متضمناً للنوعين السابقين، ويفضون الطرف عن توحيد الربوبية بدعوى أنه مركوز في الفطرة وأن نقيضه معلوم الامتناع عند الناس كلهم.

ومن ثم تقوم دراساتهم في العقيدة على مسألة الصفات الخيرية وبيان الشرك في الدعاء والذبح والنذر والوقى والتأتم والسحر والخلف بغير الله والتوسل وزيارة القبور.

(١) لمزيد من التفاصيل راجع كتابنا «الحرار بين الجماعات الإسلامية».

ومع أنه لا مشاحة في الاصطلاح إلا أن هذا التقسيم لا ضرورة له ولا تسانده دلالة لغوية أو شرعية، فالتفرقة بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية تفرقة مصطنعة، وقد ورد البيان القرآني باستخدام لفظ الرب والإله في معانٍ واحدة تشمل الإقرار والعبادة معاً ...

• فقال يوسف عليه السلام: «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» (١).

فعبّر أولاً بالأرباب وهي جمع «رب»، وعبر ثانياً بلفظ الجلالة «الله» في إطار معنى واحد هو نفي الشرك والتعدد وضرورة إفراد الله تعالى بالعبادة .

• وأمر القرآن بتقوى الله وتقوى الرب في إطار معنى واحد هو إخلاص العبادة لله فقال: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة» (٢).

وقال: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ..» (٣).

• وجاء الأمر القرآني بعبادة الرب وعبادة الله بلا تفرقة في المعنى المراد منها فقال: «يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم ..» (٤).

وقال: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً» (٥).

• وتوجه القرآن بالأمر إلى الرسول ﷺ بعبادة الرب وعبادة الله، وذلك يعني اتحاد المعنى في لفظي الرب والله .

(١) سورة يوسف - الآية ٣٩ (٢) سورة النساء - الآية ١

(٣) آل عمران - الآية ١٠٢

(٤) سورة البقرة - الآية ٢١ (٥) سورة النساء - الآية ٣٦

فقال : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدهو وإليه
مآب » (١) .

وقال : « إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ، التي حرمها ، وله كل
شئ » ، وأمرت أن أكون من المسلمين » (٢) .

• ووصف القرآن الرب بأنه الخالق المدبر المالك المتصرف ، ووصف
الله بنفس هذه المعاني . .

فقال : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم
لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشا ، والسماء بناء ، وأنزل من
السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم
تعبدون » (٣) .

فقد بدأ النص هنا بالحديث عن الرب وختم بالحديث عن الله ،
وتكرر ذلك في القرآن كثيرا ، ولنقرأ هذه الآيات :

« قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ؟

قل من يده ملكوت كل شئ ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم
تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ؟ » (٤) :

• وخص القرآن علم الساعة بالله وبالرب ، وجعل ميقاتها مقصورا .

(١) سورة الرعد - الآية ٣٦ (٢) سورة النمل - الآية ٩١ .

(٣) البقرة - الآية ٢١ ، ٢٢ .

(٤) المؤمنون - الآية ٨٤ : ٨٩ .

عليه سبحانه ، بلا تفرقة بين لفظي الرب والله ، فكلاهما يعبر عن معنى التفرد بالعلم والاستتار بالغيب .

قال جل شأنه : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ، ثقلت في السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها ، قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) .

• وأضاف القرآن جمع الخلائق وحشرهم للحساب والجوارء إلى الرب وإلى الله ..

فقال : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا » (٢) .

وقال : « قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم » (٣) .

• وجاء التعبير القرآني على لسان فرعون بوحدة المعنى في لفظي الرب والإله ، فقال : « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » (٤) .

وقال : « فحشر فنأدى فقال أنا ربكم الأعلى » (٥) .

فلم يكن فرعون يدعى لنفسه شركا في السموات ولا في الأرض ، ولم يزعم أنه خلق نفسه أو خلق أحدا من البشر .. وإنما أراد فرعون بالتعبير في الموقفين استحقاقه للطاعة واستخفافه بقومه وتسلمه عليهم ..

• • •

(١) سورة الأعراف - الآية ١٨٧

(٢) سورة النساء - الآية ٧٨ (٣) سورة سبأ - الآية ٢٧

(٤) سورة القصص - الآية ٢٨ (٥) سورة النازعات - الآية ٢٣، ٢٤

إن عقيدة المسلم في الرب هي عينا عقيدة في الله، فالرب هو المستحق للعبادة والله هو الخالق البارئ المصور، وبالعكس وصدق الله حيث يقول :

« إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يغيث الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين،^(١) .

وأيا ما كان، فشكل منهجه في البحث والدراسة مع اتفاق الجميع على التوحيد الخالص لله تعالى ذاتا وصفة وفعلا .

فإنه تعالى واحد أحد في ذاته بلا شريك أو صاحبة أو معه .
وهو سبحانه واحد أحد في صفاته ولا يشبه أحدا من خلقه
ولا يشبه أحد .

وهو جل شأنه واحد أحد في فعله، له الخلق والأمر، فعال لما يريد .

(١) سورة الأعراف - الآية ٤٤

أسماء علم العقيدة

هذه الدراسات في الإلهيات والنبوات والسمعيات تتضمن تحت علم خاص يسمى بأسماء متعددة ، أهمها :

١ - علم التوحيد :

وسمى بذلك لأن مبحث الوجدانية أشهر مباحثه ، والتوحيد هو مركز الدائرة في رسالات الله جميعاً إلى الخلق ، قال تعالى : وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ، (١) .

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

- كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي ت ٣٢٣ هـ
- جوهرة التوحيد لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني ت ١٠٤١ هـ

وهي منظومة حظيت بشروح وحواش وتعليقات .

ويقول ناظمها في مفتحها :

المحمد لله على صلواته	ثم سلام الله مع صلواته
على نبي جاء بالتوحيد	وقد دعوى الدين عن التوحيد
فأرشد الخلق للدين الحق	بسيفه وهديه للحق
محمد العاقب لرسول ربه	وآله ومحبيه وحزبه
وبعد فالعلم بأصل الدين	عظم يحتاج للتبيين

(١) سورة الأنبياء - الآية ٢٥

لكن من التطويل كانت المهمم فصار فيه الاختصار ملتزم
وهذه أرجوزة لقبها جوهرة التوحيد، قد هذبها
واقة أرجو في القبول نافعاً بها مریداً، في الثواب طامعاً

- رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ت ١٢٢٣ هـ
- كتاب التوحيد الفنى هو حقاؤه على العميد للشيخ محمد بن عبد الوهاب
ابن سليمان التميمي ت - ١٢٠٦ هـ

٢ - علم الكلام:

قال صاحب المواقف « وإنما سمي كلاماً إما لأنه يازاء المنطق للفلاسفة،
أو لأن أبوابه عنونت أولاً بالكلام في كذا، أو لأن مسألة الكلام أشهر
أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه، أو لأنه يورث قدوة
على الكلام في الشرعيات ومع الخصم، (١) .

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم:

- نهاية الأقدام في علم الكلام للإمام أبي الفتح محمد بن عبد الكريم
الشهرستاني ت - ٥٤٨ هـ

- غاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الأمدى ت - ٦٢١ هـ
- المواقف لعضد الدين الإيجي ت - ٧٥٦ هـ

(١) المواقف لعضد الدين الإيجي ص ٨ ط بيروت .

٣ - علم أصول الدين :

قباحت هذا العلم هي أصول الدين وقاعدته ، فلا عمل بغير إيمان ،
ولا أخلاق بغير عقيدة .

وقد تكون هذه التسمية في مقابلة علم أصول الفقه المتعلق باستنبط
الأحكام العملية من مظانها الشرعية ..

ومن المؤلفات تحت هذا الاسم :

- الإبانة عن أصول الهداية للإمام أبي الحسن الأشعري ت ٢٣٠ هـ
- أصول الدين للإمام أبي منصور عبد القاهر البغدادي ت ٤٢٩ هـ
- الأربعين في أصول الدين للإمام غفر الله له الرازي ت ٦٠٦ هـ
- أبقار الأفكار في أصول الدين لسيف الدين الأمدى ت ٦٣١ هـ

٤ - علم الفقه الأكبر :

الفقه هو الفهم ، وأكبر الفهم وأفضله وأعمقه ما توجه إلى الملا الأعلى
والذات الأقدس والوحي الإلهي الأسمى ..

وهذه التسمية في مقابلة الفقه الأصغر ، الذي هو فقه العبادات
والمعاملات ، فلا عبادة إلا بعد معرفة المعبود الحق ، ولا معاملة إلا بمعرفة
منهج الله الذي أنزله على رسوله ..

ومن الكتب التي تحمل هذا العنوان كتاب «الفقه الأكبر» (١)

(١) وهو متن يقع في ست صفحات تقريبا ، ويشكلك البعض في نسبه
إلى أبي حنيفة

لأبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ت - ١٥٠ هـ وقد شرحه الملا علي
القارى ت ١٠١٤ هـ .

كما شرحه أحمد بن محمد المغنيساوى ت ١٠٩٠ هـ

• - علم العقيدة :

وهى الامور التى تعتقد بالقلب ، وتصدق بالجان ، ويطمئن إليها
الفؤاد ، وترسخ فى الأحماق بحيث تشاقق الروح وتواخىها ، ويصر عليها
المراء إصراراً كاملاً ، ويقنع بها اقتناعاً تاماً . .

ومن المؤلفات التى تحمل اسم العقيدة:

كتب تنسب العقيدة إلى مؤلفها مثل :

• العقيدة الطحاوية لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي
الطحاوى [نسبة إلى طحا بصعيد مصر] ت ٣٢١ هـ

• العقائد العنصرية لعبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد الإيجى الشيرازى
المتوفى ٧٥٦ هـ

• العقائد النسفية لعمر بن محمد النسفى [ت ٥٣٧ هـ] .

• العقيدة الأصفهانية لشمس الدين محمد بن محمود الأصفهانى المولود
سنة ٦١٦ هـ بأصفهان والمتوفى سنة ٦٨٨ هـ بالقاهرة ، وقد شرحها الإمام
ابن تيمية وخالف مؤلفها فى بعض المقاصد . .

وكتب تنسب العقيدة إلى بلاد سأل منها مثل :

• العقيدة الواسطية : نسبة إلى بلدة واسط ، يقال إن رجلاً منها سأل
الإمام ابن تيمية أن يكتب له عقيدة تكون عدة له ولأهل بيته . .

وقيل لأن المؤلف ذكر فيها أن أهل السنة وسط بين فرق الضلال
من هذه الأمة .

و كتب تنسب العقيدة إلى فرقة من الفرق مثل :

• شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للإمام أبي القاسم هبة الله
ابن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ت ٤١٨ هـ .

• • •

المبحث الثاني

نشأة علم العقيدة وتطوره

• مرحلة العهد النبوي

• مرحلة الصراع العسكري

• مرحلة الصراع السياسي

• مرحلة الصراع الفكري

• مرحلة العصر الحديث :

— الاتجاه الأشعري

— الاتجاه السلفي

— الاتجاه الاعتزالي

— كفة أخيرة

نشأة علم العقيدة

وتطوره

١ - مرحلة العهد النبوي :

لا يكمل عقل الإنسان إلا بالإيمان بخالقه ومبدع الكون والنكائات، ولا تتحقق سعادة البشر إلا بالولاء لمنهج الوحي الإلهي الذي جاءت به الرسل ، ليقوم الناس بالقسط .

والإنسان بطبيعته متسائل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ، فهو يتطلع إلى معرفة الغيب ، وإلى علم الأسباب والمسببات ، وإلى اكتشاف المجهول ، والسعي لاكتساب المعرفة بكل شيء .

وعندما أشرقت الأرض بنور ربها وجاء الوحي المحمدي كانت الكلمة الأولى التي هي مفتاح السعادة ومعيار الإيمان — هي كلمة التوحيد « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وافتح القرآن المجيد بآيات تدعو إلى العلم والمعرفة باسم الرب الذي أبدع وعلم ، وأحكم وأتقن ، وبك دلائل الأنفس والآفاق ، فقال: « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، (١) » .

وتوالت العقائد في النبوة والوحي ، والبعث والحشر ، والحساب والجزاء ، والجنة والنار ، مدعمة بأدلتها العقلية ، تخرج من مشكاة النبوة نوراً على نور .

(١) سورة العلق — الآية ١:٥

(٣ - التمهيد)

ووقف الناس متسائلين عن بدء الخلق ، ومصير الكون ، وعلاقة
الإنسان بخالقه ، وتلقاهم الرسول ﷺ بما يشرح الصدر ويقم الحجاة
ويقطع دابر الشبهة .

وعلى سبيل المثال فقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن عمران
ابن حصين رضى الله عنهما قال :

دخلت على النبي ﷺ ، وعقلت ناقى بالباب ، فأتاه ناس من بنى تميم
فقال : اقبلوا البشرى يا بنى تميم ، قالوا : قد بشرتنا فأعطنا (مرتين) .
ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن أن
لم يقبلها بنو تميم .

قالوا : قد قبلنا يا رسول الله . . جئتنا نسألك عن هذا الأمر ...

قال : كان الله ولم يكن شىء غيره .

وكان عرشه على الماء .

وكتب فى اللذ كر كل شىء . .

وخلق السموات والأرض .

قال عمران : د فنادى مناد ، ذهب ناقك يا ابن الحصين ، فانطلقت
فإذا هى يقطع دونها السراب ، فوالله لو دوت أنى كنت تركتها . . .

فى هذا الحديث يقص عمران بن حصين مشهدا فى حضرة النبي ﷺ ،
لقد دخل عليه بنو تميم فقال لهم : اقبلوا البشرى أى هلوا أعليكم عملا
صالحا يصل بكم إلى الجنة ويحقق لكم السعادة الأبدية ، لكن القوم ظنوا
البشرى مآكل ومشارب وأموالا فطلبوا العطاء العاجل والحوا فى سؤاله .

وفى هذه الأثناء دخل قوم آخرون من أهل اليمن جاءوا من أجل الهدف
السامى ومعرفة الوجود الأعلى والاستقامة على الحق ، فبدأ الرسول ﷺ
يشرح لهم الحق ، ويبين لهم بدء الخلق ، ويجيب على تساؤلات القوم .

وفي اموالنا عدة تكلم الصحابة في القضاة والقدر، وطرز حوا
تساؤلات أمام رسول الله ﷺ .. وجاء في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه قال :

كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأقانا رسول الله ﷺ فقمنا وقعدنا
حوله، ومعه نخصرة، فنكس فجعل ينكس بمنصرته^(١) ثم قال : ما منكم
من أحد، ما من نفس منقوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار،
وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة .

فقال رجل : يا رسول الله أفلا ينكسك على كتابنا وندع العمل ؟

فقال : من كان من أهل السعادة فيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن
كان من أهل الشقاوة فيصير إلى عمل أهل الشقاوة، اعملوا فكل ميسر،
أما أهل السعادة فيسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيسرون
لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ :

« فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل
واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » (٢) .



وقد كملت العقيدة على عهد رسول الله ﷺ وسلمت من الفتن، وكان
إيمان المهاجرين والأنصار هو الإيمان الحق الذي لم تعرف الدنيا له مثيلا

(١) النخصرة — بكسر الميم — ما أخذه الإنسان بيده واختصره، من
حصا صغيرة وعكاز صغير وغيرهما، ونكس — بتخفيف الكاف
وتشديد الهمزة — لغتان فصيحتان أي خفض رأسه، ونكس أي خط خطا
يسير مرة بعد مرة

(٢) سورة الليل — الآية ٥ : ١٦

في اليقين به والثبات عليه والتمسك عنه .. وشهد الوحي المنزل بالجنة لكثير
منهم ، قال تعالى :

« لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في
قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، (١) .
وقال جل شأنه :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم
يا حسنة رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار
خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم ، (٢) .

(١) سورة الفتح — الآية ١٨
(٢) سورة التوبة — الآية ١٠٠

٢ - مرحلة الصراع العسكري :

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، ووقف الناس حيارى فيمن يخلف الرسول في قيادة الأمة، واجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة ولحق بهم من المهاجرين أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح ..

وبعد مداولات ومراجعات انتهى الاجتماع ببيعة أبي بكر الصديق خليفة لرسول الله وإماما للمسلمين ..

ومنذ تلك اللحظة تفجرت قضايا عقدية ما زالت إلى اليوم محل اجتهاد وبحث ، وتقدمت قضية الإمامة لتحل مكان الصدارة في فكر المسلمين ، ولتأخذ وقتا وجهدا ، ولتدفع إلى معارك وحروب، تركت جروحا غائرة في جسد الأمة الإسلامية .

ثم تلى ذلك قضية الردة والتكفير، فقد ارتد بعض الأعراب والقبائل التي كانت حديثة عهد بالإسلام ، وامتنع بعضهم عن إخراج الزكاة .

وحدثت مشاورات بين الخليفة أبي بكر وعمر بن الخطاب، فقد رأى عمر الكف عن محاربة مانعي الزكاة حتى لا تتعدد جبهات القتال واحتج بقول رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بجهته وحسابه على الله .

فرد عليه أبو بكر قائلا :

وايه لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، واياه لو منعوني عقلا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ..

فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن قد شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه فعرفت أنه الحق .

كما ظهرت قضية السنة والبدعة ، وتجلي ذلك في مسألة جمع القرآن على عهد أبي بكر رضي الله عنه ، فقد أخرج البخاري بسنده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال :

أرسل إليّ أبو بكر الصديق مقتل اليمامة^(١) ، فإذا عمرو بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر رضي الله عنه : إن عمرو أتاني فقال إن القتل قد استمر^(٢) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى إن استمر القتل بالقراءة بالمواطن^(٣) فيذهب كثير من القرآن ؛ وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن .

قلت لعمر : كيف فعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال عمر : هذا - والله - خير .

فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورويت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا تهملك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فأجمعه .

قال زيد : فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن ..

(١) أي عقب معركة اليمامة في مواجهة مسيلمة الكذاب ، وقتل فيها جماعة كثيرة من الصحابة ، قيل سبعمائة وقيل أكثر .

(٢) أي اشتد وكثر .

(٣) أي المعارك الحربية .

قلت : كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟

قال : هو - والله - خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . . .

فتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف^(١) وصدور الرجال ، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري ، لم أجدها مع أحد غيره^(٢) ، لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حتى جاءت براءة . . .

فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما . . .

وقد ساق الإمام ابن حجر في شرحه لهذا الحديث أقوال العلماء في تفسير موقف الصديق والفاروق وما يؤخذ منه من قواعد شرعية . . . قال :

قال ابن بطال : إنما نقرأ أبو بكر أولاً ثم زيد بن ثابت ثانياً لأنهما لم يجدا رسول الله ﷺ فعله ، فكرها أن يحلا أنفسهما محل من يزيد احتياطه للدين على احتياط الرسول ، فلما نههما عمر على فائدة ذلك ، وأنه خشية أن يتغير الحال في المستقبل إذا لم يجمع القرآن فيصير إلى حالة الخفاء بعد الثبوت - رجعا إليه . . .

قال : ودل ذلك على أن فعل الرسول ﷺ إذا تجرد عن القرائن - وكذا تركه - لا يدل على وجوب ولا تحريم . . .

(١) العسب بضم الأول والثاني جمع عسب وهو جريد النخل ، واللخاف بكسر اللام جمع لخرة بفتح اللام ، وهي صفايح الحجارة الرقاق .
(٢) كان شرط الجمع الحفظ في الصدور ، والكتابة بين يدي الرسول ، وهو لم يجدها مع غيره أي مكتوبة ، فالجميع يحفظونها .

وتلك قاعدة مهمة نبدأ بها في وجه المنين بمنعون الخير ويحرمون الناس من ثواب الله بحجة أن الرسول لم يفعل أو أنه لم يأمر . .

ثم نرى ابن حجر أن يكون موقف الصديق والفاروق زيادة على احتياط رسول الله وأكد أنه مستمد من القواعد التي مهدها الرسول، ونقل عن ابن الباقلان قوله : كان الذي فعله أبو بكر من ذلك فرض كفاية ، بدلالة قوله ﷺ : لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن ، مع قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه » (١) ، وقوله : « إن هذا لى الصحف الأولى » (٢) وقوله : « رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة » (٣) .

فكل أمر يرجع لإحصائه وحفظه فهو واجب على الكفاية ، وكان ذلك من النصيحة لله ولرسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم .

وقد فهم عمر أن ترك النبي ﷺ جمعه لا دلالة فيه على المنع ، ورجع إليه أبو بكر لما رأى وجه الإصاية في ذلك ، وأنه ليس في المنقول ولا في المنقول ما ينافيه ، وما يترتب على ترك جمعه من ضياع بعضه ، ثم تابعها زيد بن ثابت وسائر الصحابة على تصويب ذلك (٤) .

وقد أرسى ذلك أصلاً كبيراً في التشريع الإسلامى هو الاستحسان والمصالح المرسلات انطلاقاً من قوله تعالى : « وافعلوا الخير لعلمكم ففعلون » (٥) .

-
- (١) سورة القيامة - الآية ١٧ .
 - (٢) د الأعلى - د ١٨ .
 - (٣) د اليينة - د ٢ .
 - (٤) فتح البارى - المجلد التاسع ص ١٣ ط دار الفكر .
 - (٥) سورة الحج - الآية ٧٧ .

يقول الإمام نجم الدين الطوفي :
وبما يؤكد العمل بالمصالح المرسله أن الصحابة رضوا الله عنهم عملوا
أموراً لمطلق المصلحة لا لتقدم شاهد بالاعتبار :

نحو كتابة المصحف ولم يتقدم فيها أمر ولا نظير ، وولاية العهد من
أبي بكر لعمر رضي الله عنهما ولم يتقدم فيها أمر ولا نظير ..
وكذلك ترك الخلافة شورى ، وتدوين الموازين ، وعمل السكة^(١)
للمسلمين واتخاذ السجن ، فعل ذلك عمر رضي الله عنه .
وهدم الأوقاف التي يازاء مسجد رسول الله ﷺ والتوسعة فيه عند
ضيقة ، وتجديد الأذان الأول في الجمعة ، فعل ذلك عثمان رضي الله عنه .
كل ذلك لمطلق المصلحة^(٢) .

• • •

ثم اتسعت الفتوحات الإسلامية ، وسارت قوافل النور تمحو ظلام
الشرك وظلم الطواغيت ، فدخلت في الإسلام طوائف تقية ، أو سعيًا
لمآرب ، أو تربصًا بفتنة ..

وكان مقتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب مفاجأة أذهلت المسلمين
وكشفت عن الخطر الدام الذي يهدد المسلمين من تلك الطوائف
الدهخيلة ..

لكن الأمر امتد واستفحل وماجت الأرض بحركة عصيان وتمرد
طائفة جمعت كل أصحاب الأهواء وأحكمت حلقاتها على المدينة المنورة
وقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ..

(١) السكة بكسر السين الدراهم المنقوشة .

(٢) شرح مختصر الروضة - تحقيق د ، عبد الله بن عبد المحسن التركي

ص ٣٥ ط ٢١٢ الرسالة .

ودم الأمة ما دهمها من حروب طاحنة في موقعتي الجمل وصفين ،
وانتهت المأساة بمقتل الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في
سحر يوم الجمعة لمسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان عام أربعين
من الهجرة ...

وفي هذه المرحلة أطلت على المسلمين أفكار الحلول والاتحاد والتشبيه،
وتولى كبرها غلاة الشيعة يتقدمهم عبد الله بن سبأ . . .

وامتدت قضية التكفير لتعم المسلمين جميعاً ، فلم يكد ينجو مسلم من
أن يحكم بها أو يحكم عليه بها ، وتولى كبرها الخوارج فقد كانوا أكثر
الفرق إرهاباً لمجتمع المسلمين .

٣ - مرحلة الصراع السياسي :

انتهت الخلافة الراشدة وأصبح الملك عضواً ، وتصعدت الأمة بأحزاب سياسية وفرق دينية ، ألقت السلاح في مواقع كثيرة وبدأت الممارك الكلامية ، فشهدت الساحة جدلاً كبيراً بين الشيعة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة . .

وتدخل الفكر الوافد الفلسفي والصوفي ليولد في الأمة مذاهب هدامة وليشد من أزر الغلاة والزنادقة والملاحدة . .

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه مقدمة لحديث جبريل المشهور عن يحيى بن يعمر قال : كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهنم ، فانطلقت أنا وحيد بن عبد الرحمن الخيري حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو قلنا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر .

فوق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخل المسجد فاكتمفته أنا وصاحبي ، أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله ، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي ، فقلت :

أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتفقرون^(١) العلم ، وذكر من شأنهم ، وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أتق^(٢) . . .

(١) تقفر العلم - بتقديم القاف على الفاء أو بالعكس - معناه طلب العلم والبحث عن غامضه واستخراج حقيقته .

(٢) أي المتبقيات ، لم يسبق به علم عن الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه .

قال ابن عمر : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم
برآء مني ، والذي يخلف به عبدا لله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد
ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . . . ثم ساق حديث
جبريل . . .

وقامت السلطة السياسية لنصرة مذهب على مذهب حماية للدولة
وليس ولاء لله . . .

وعلى سبيل المثال فإن أول من قال بخلق القرآن الجعد بن درهم ،
فقتله خالد بن عبد الله القسري يوم عيد الأضحي بالكوفة عام أربعة
وعشرين ومائة ، خطب الناس فقال :

أيها الناس ضحوا ، تقبل الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، إنه
زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله
عما يقول الجعد علواً كبيراً . . .

ثم نزل فذبحه في أصل المنبر . . . ١١

وشاء الله أن يقتل خالد بن عبد الله القسري شر قتلة ، قتله يوسف
ابن عمر ، فبتر قدميه ثم ساقه ثم نخذه ثم صدره ، فأت ولا يتكلم كلمة
واحدة ولا تأوه حتى خرجت روحه (١) .

وتدور الأيام دورتها وجاء الخليفة العباسي المأمون فاعتنق مذهب
الاعتزال وحمل الناس على القول بخلق القرآن وأرسل عام ٢١٨ هـ كتاباً إلى
والي بغداد [سحق بن] إبراهيم بن مصعب يطلب منه امتحان القضاة

(١) البداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق محمد عبد العزيز النجار ج ٩
ص ٢٩٤ ، ج ١٠ ص ٢٠ ط مطبعة السعادة .

والمحدثين في مسألة القرآن ، كما أمره أن يأخذ على القضاة ههداً أن لا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن . .

ولقد تحمل الإمام أحمد بن حنبل عناء شديداً وبلاء كبيراً في مواجهة هذا التعصب السياسي على عهد المأمون والمعتصم والواثق إلى أن جاء الخليفة العباسي المتوكل فترك القول بخلق القرآن وأطلق سراح أحمد ابن حنبل . .

ولقد اشتهر الحديث عن العقائد في هذه المرحلة باسم علم الكلام وتبينته فرق المبتدعة المخالفين لأهل الحديث والسلف ، ولهذا ورد الهم لعلم الكلام على السنة أئمة السلف ، فقال أبو يوسف لبشر الميرسي المعتزلي : العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم ، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام قيل : زنديق أو رمى بالزندقة . .

وقال الشافعي رحمه الله تعالى :

حكى في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ، ويطاف بهم في العشار والقبائل ، ويقال هذا جواء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام . .

وتعددت كتب الأئمة في الرد على هؤلاء ، مثل :

• كتاب الرد على الزنادقة والجهمية .

للإمام أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ

• وكتاب خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل .

للإمام البخاري ت ٢٥٦ هـ

• وكتاب الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة . .

للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت ٢٧٦ هـ .

• وكتاب الرد على الجهمية

• وكتاب الرد على المريسي

وكلاهما للإمام أبي عثمان الهاربي ت ٢٨٠ هـ

وهذه الكتب بمجموعة في مجلد واحد يسمى : عقائد السلف (١) .

وإن كان البعض يشكك في نسبة الكتاب الأول إلى الإمام أحمد ،

وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء : إنه موضوع عليه .

(١) تحقيق د. علي سامي اللشار وعنار جمعة الطالبي ط منشأة المعارف بالإسكندرية .

٤ - مرحلة الصراع الفكري :

تموت الخلافة الإسلامية منذ العصر العباسي الثاني (٨٢٣٢) إلى دول متعددة ، كالدولة الصفارية والسامانية في خراسان وما وراء النهر ، والدولة الخدانية في الموصل وحلب ، والطولونية والإخشيدية في مصر ، والفاطمية في المغرب ، والأغالبة في تونس ، والأدارسة في مراکش ، والأموية في الأندلس .

وقد قامت بعض هذه الدول منذ عهد مبكر أثناء الخلافة الأموية في دمشق وأثناء العصر العباسي الأول . .

وتمدد هذه الدول أدى إلى تعدد الاتجاهات المذهبية والفكرية ، فكان منها الشيعة والسنة ، ومنها المعتزلة والخوارج ، واحتضن الخلفاء والأمراء أئمة هذه المذاهب ، وقامت حركة تأليف واسعة في شتى فنون الفكر واتسع الجدل بين العلماء بعيدا عن ساحة الحكام ، وقام علم الكلام جديدا في منهجه ، فقد تسلح بسلاح خصومه في المنطق ، ودرس الفلسفة وجمع الشبهات ، وساق الأدلة العقلية هلى النمط المنطقي ليؤيد قضايا العقيدة ويلتصر للدين ويدفع قن الزنادقة والملحدن . .

فكان أبو الحسن الأشعري (ت. ٣٣٠ هـ) (١) فائحة هذا العهد بعد أن ترك مذهب الاعتزال الذي ظل عليه أربعين عاما في حضن زوج أمه

(١) هناك خلاف في سنة وفاة الأشعري قبل سنة ٨٣٣٠ ، أو ٨٣٤ ، أو نيف وثلاثين وثلاثمائة .

أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في عصره ، وتحويل إلى مذهب السلف ، فرقى كرميا في المسجد الجامع في البصرة ونادى بأعلى صوته : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسى ، أنا أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعالها ، وأنا نائب مقلع ، معتقد للورد علي المعتزلة ، مخرج لقضائهم ومعاييرهم . . . (١٢) .

وامتشق الأشعري سلاح المعتزلة الجدلي ، وانصر به مذهب السلف ، ونحا بعلم الكلام منحى جديدا وقال مستحسنا الخوض في علم الكلام : « إن طائفة من الناس جعلوا الجبل رأس مالمهم ، وثقل عليهم النظر والبعث عن الدين ، ومالوا إلى التخفيف والتقليد ، وطعنوا على من قتش عن أصول الدين ونسبوه إلى الضلال ..

وزعموا أن الكلام في الحركة والسكون ، والجسم والعرض ، والألوان والأكوان ، والجوهر والطفرة ، وصفات البارئ عو وجل - بدعة ، وقالوا لو كان ذلك هدى ورشادا لتكلم فيه النبي ﷺ وخلفاؤه وأصحابه ..

قال أبو الحسن :

والنبي ﷺ لم يقل أيضا إنه من بحث عن ذلك وتكلم فيه فاجعلوه مبتدئا ضالا .. ثم إن النبي ﷺ لم يجعل شيئا مما ذكرتموه من الكلام في الجسم والعرض والحركة والسكون والجوهر والطفرة ، وإن لم يتكلم في كل واحد من ذلك معنا ، وكذلك الفقهاء من الصحابة ..

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ، تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبدالحيد ص ٤٤٦ - ٢٠ ط مكتبة النهضة المصرية .

غير أن هذه الأشياء التي ذكرتموها معيثة، أصولها موجودة في القرآن
والسنة، بجملة غير مفصلة ..

وأما الكلام في أصول التوحيد فأخوذ أيضاً من القرآن الكريم،
قال تعالى « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ، وهذا كلام موجز منه
على الحجة بأنه واحد لا شريك له ..

ونحتاج على من قال إن الله تعالى وتقدس يشبه المخلوقات وإنه جسم ،
بأن نقول له :

لو كان يشبه شيئاً من الأشياء لكان لا يخلو من أن يكون يشبه من
كل جهاته أو من بعض جهاته ..

فإن كان يشبه من كل جهاته وجب أن يكون محدثاً من كل جهاته ،
وإن كان يشبه من بعض جهاته وجب أن يكون محدثاً مثله من حيث أشبهه ،
لأن كل مشتبهين فكهما واحد فيما اشتبهاه ..

ويستحيل أن يكون المحدث قديماً والقديم محدثاً .. قال تعالى وتقدس
« ليس كئله شيء » ...

ثم ذكر الأشعري مسائل الفروع في الفقه وقال إن مرد هذه إلى
السمع وإلى الرسل ، أما ما يتعلق بالأصول فقال :

ينبغي لكل طائر مسلم أن يرد حكمها إلى جملة الأصول المتفق عليها
بالعقل والحس والبديهة ، لأن حكم مسائل الشرع التي طريقها السمع
أن تكون مردودة إلى أصول الشرع الذي طريقه السمع ..

وحكم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كل شيء من ذلك إلى
بابه ، ولا تخلط العقليات بالسمعيات ، ولا السمعيات بالعقليات ..

(٤ - التمهيد)

فلو حدث في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم - الكلام في خلق القرآن وفي الجزء والطفرة بهذه الألفاظ لتكلم فيه وبينه كما بين سائر ما حدث في أيامه من تعيين المسائل والتكلم فيها ..

فإن قال قائل : فأنا أتوقف في ذلك فلا أقول مخلوق ولا غير مخلوق ، قيل له :

فأنت في توقفك في ذلك مبتدع ضال ، لأن النبي ﷺ لم يقل إن حدثت هذه الحادثة بمدى توقفها فيها ولا تقولوا فيها شيئاً ، (١) .

وتوالى أئمة أعلام على هذا الدرب مثل أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) وأبي المعالي الجويني (ت ٤٧٨هـ) وأبي حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) واختلط علم الكلام بالفلسفة ، وسيقت قضاياها فلسفية البدء ، عقلية المنهج ، قرآنية النتيجة ..

فلكى يصلوا إلى عقيدة إيمانية مهدوا لها تمهيدات بعيدة وناقشوا قضايا دخيلة ، وتمرضوا لأمر لها عمقها الفلسفي والخيالي ..

وعلى سبيل المثال فإن كتاب العقائد النسفية لعمر بن محمد النسفي (ت ٥٣٧هـ) بدأ بهذه العبارة :

قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة ، والعالم بها متحقق خلافاً للسوفسطائيين ..

(١) نقلاً عن كتاب تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون تأليف عمر نورخ ص ٢٣٥ ط دار العلم للملايين سنة ١٩٨٣ م

ثم قسم أسباب العلم إلى ثلاثة هي :

الجواس السليمة والخبر الصادق والمقل ..

وبعد شرح هذه الأسباب انتقل إلى قضية حدوث العالم فقال : والعالم بجميع أجزائه محدث ، إذ هو أعيان وأعراض ..

فالأعيان ماله قيام بذاته ..

وهو إما مركب وهو الجسم ..

أو غير مركب كالجوهر ، وهو الجزء الذي لا يتجزأ ..

والعرض ما لا يقوم بذاته ، ويحدث في الأجسام والجواهر ، كالألوان والأكوان والطعوم والروائح

والمحدث للعالم هو الله تعالى الواحد القديم الحى المتأدب العليم السميع البصير ... (١) .

وقد عرف ابن خلدون ت ٨٠٨ هـ علم الكلام بأنه :

علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ..

وقال في موضع الآخر :

فموضوع علم الكلام عند أهله إنما هو العقائد الإيمانية بعد فروضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليها بالأدلة العقلية ، فترفع البدع وتزال الشكوك والشبه عن تلك العقائد (٢) ..

(١) متن العقائد النسفية ضمن كتاب مجموع مهات المتون ، ص ١٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت سنة ١٩٩٤ م .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٣ . ص ٣٦٩ ط دار الكتب العلمية - بيروت .

ولقد حل ابن تيمية ت ٧٢٨ هـ حجة شعواء على المتكلمين واتهمهم
بالبعد عن طريقة الكتاب والسنة .

والتأمل لفكر ابن تيمية يجد أنه لم يفعل أكثر ، فاعل علماء الكلام
أنفسهم ، فلقد رد ودافع بنفس أسلوب ومنهج المتكلمين والفلاسفة ، وأعاد
لنا موقف الإمام أبي حامد الغزالي من الفلاسفة وفرق الزينج .

ولما جاء ابن أبي العز الممشقي ت ٧٩٢ هـ ليشرح العقيدة الطحاوية
قال :

وشرح هذه العقيدة غير واحد من العلماء ولكن وأيت بعض
الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم واستمد منهم وتكلم
بعبارتهم . .

ثم قال :

وقد أحببت أن أشرحها سالكاً طريق السلف في عباراتهم ، وأنسج
على منوالهم ، متطفلاً عليهم لعل أن أنظم في سلكهم ، وأدخل في عدادهم
وأحشر في زميرتهم .. (١) .

ومع ذلك فإنك إذا تصفحت شرح ابن أبي العز تجده لا يختلف عن
منهج المتكلمين في شيء ..

فلقد تكلم عن الماهية وأحكام التقيض والضد ، والمطلق الكلي
دل هو موجود في الأذهان أو الإعيان ، والواجب والممكن ، والنوع
والجنس ، والدور والتسلسل بل إنه رجح - ككشيقه ابن تيمية -
تسلسل الحوادث في الماضي وقال :

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٢ ط المكتب الإسلامي سنة

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المقبول مقارنا لفاعله لم يزل ولا يزال معه - تمتنع محال ، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء ، فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء .. (١) .

وتكلم ابن أبي العز عن واجب الوجود والممكن والعلاقة بينهما فقال :

فإن الموجودات لا بد أن تتهيء إلى واجب الوجود لذاته قطعاً للتسلسل (٢) ، فإننا نشاهد حدوث الحيوان والنبات والمعادن ، وحوادث الجو كالسحاب والمطر وغير ذلك ..

وهذه الحوادث وغيرها ليست بمتنعة ، فإن الممتنع لا يوجد .

ولا واجبة بنفسها فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبل العدم ، وهذه كانت معدومة ثم وجدت ..

فقدمها يتي وجوبها (٣) ..

ووجودها يتي امتناعها .

وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجوده بنفسه كما قاله تعالى

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٣٤ ط المكتب الإسلامي سنة

١٣٩٤ هـ .

(٢) لاحظ أن الشيخ هنا يتي التسلسل وقد قبله هناك .

(٣) في النسخة المطبوعة « وجودها » وهو خطأ والصواب ما أثبتناه

فإن قبول الشيء للوجود والعدم يدل على إمكانه ويني وجوبه .

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون »^(١)

• • •

إن الذين يهاجمون علم الكلام بمصطلحه الجديد إنما يستخدمون منهج علم الكلام ذاته ، فهم متكلمون رغم أنهم لا يفهمون ..

وإن الذين يدافعون عن الإسلام في مواجهة العلمانيين وأهل الضلال إنما يقوم دفاعهم على منهج علم الكلام من حيث لا يشعرون .. ١١

وإذا كان الأقدمون عايشوا عصرهم وتغلبوا على خصومهم بسلاح أجدادهم فإن المحدثين لن ينجحوا إلا باستخدام سلاح العلم الحديث ، وملاحقة التطور السريع لبحوث الفضاء والهندسة الوراثية والاستنساخ ..

فإن لكل زمن قضاياها ولكل عصر شؤنه ، ويبقى موضوع علم الكلام واحداً على مدى العصور وهو الدفاع عن عقائد الإيمان بالأدلة العقلية المتاحة لكل جيل .

وهذه الأدلة متضمنة في القرآن المجيد يعقلها العالمون على مدى تاريخ الحياة ، ولا تجتمع لجيل دون آخر ، ولا يستأثر بها سلف دون خلف ، وإنما تظل تنبسط على مدى عمق التأمل وفطنة العقل وصفاء الفطرة .. قال تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد »^(٢) .

(١) سورة الطور — الآية ٣٥ وراجع ص ١١٢ من شرح الطحاوية -

(٢) سورة فصلت - الآية ٥٣

• - مرحلة العصر الحديث :

تبلور علم العقيدة الآن في ثلاثة اتجاهات رئيسية هي :

- الاتجاه الأشعري .

- الاتجاه السلفي .

- الاتجاه الاعتزالي .

• • •

الاتجاه الأشعري :

يتبوأ الاتجاه الأشعري مكان الصدارة في معظم الجامعات والجمعيات الإسلامية ، وبخاصة في الأزهر الشريف ..

ففي مراحل التعليم الأولى تقوم المناهج على منظومة الخريفة البهية في العقائد التوحيدية لأبي البركات أحمد بن محمد الدردير المتوفى ١٢٠١ هـ .

وفي المرحلة الثانوية تعتمد المناهج على جوهرة التوحيد لبرهان الدين إبراهيم بن هارون اللقاني المتوفى ١٠٤١ هـ وشروحها وبخاصة شرح الشيخ الباجوري المتوفى ١٢٧٧ هـ .

وفي المرحلة الجامعية يدرس الطلاب كتاب الاقتصاد في الاعتقاد لأبي حامد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ والمواقف لعبد الله الإيجي المتوفى ٧٥٦ هـ وشرحها للثريفة الجرجاني المتوفى ٨١٦ هـ ، وشرح المقاصد لسعد الله التفتازاني المتوفى ٧٩٢ هـ ، ويعرجون على كتب الرازي والأمدى .

والملاحظة الجديرة بالاعتبار أن هذه الدراسة الأزهرية لا تعرف التعصب ولا تلزم بالاعتقاد في المذهب ، وتدع لعلماء الأزهر فرضة الاختيار الحر ..

وقد نجد من الأزهريين من هو اعترالى المذهب ، بل إن أئمة كباراً تولوا مشيخة الأزهر أو كانوا في مستواها نادوا بأفكار اعترالية ودافعوا عنها كالشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ) والشيخ محمد مصطفى المراغى (ت ١٩٤٥م) والشيخ محمود شلتوت (ت ١٩٦٣م) ومن أئمة الأزهر الفلاسفة الشيخ مصطفى عبد الرزاق (ت ١٩٤٧م) وأنجب الأزهر أئمة في التصوف منهم الدكتور عبد الحلیم محمود (ت ١٩٧٨م) ، وحظى الاتجاه السلقي بعدد من علماء الأزهر نالخوا عنه وجاهدوا في سبيله منهم الشيخ محمد حامد الفقى (ت ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م) الذى أسس جماعة أنصار السنة المحمدية لتبني الدعوة الوهابية ، وساعده الشيخ عبد الرزاق عفيفى (ت ١٤١٥هـ ١٩٩٤م) وقد تولى منصباً رفيعاً في الإفتاء السعودى ..

الاتجاه السلقي :

برز هذا الاتجاه أكثر وضوحاً على أيدي الدعوة الوهابية التي قادها الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدى المتوفى ١٢٠٦هـ بتحالفه مع البيت السعودى ..

ويعتمد الاتجاه السلقي على كتب الإمام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ وتلميذه ابن القيم ت ٧٥١هـ وتقوم مناهج علم العقيدة في المملكة العربية السعودية على رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأهمها كتاب «التوحيد الذى هو حق الله على العبيد» ، وكتاب «مسائل الجاهلية» .

وكتابات الشيخ مختصرة وأكثر عباراته إشارات ..

ويعد كتاب شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الدمشقى أكثر كتب العقيدة انتشاراً بين طلاب العلم في الجامعات السعودية بالإضافة إلى الواسطية والتدمرية والحوية لابن تيمية ، ويقوم العلماء المحدثون بمحاولة

تأصيل هذا الاتجاه والدفاع عنه فظهرت كتب ورسائل صغيرة للشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، والشيخ محمد بن صالح العثيمين ، والشيخ صالح بن فوزان الفوزان ..

وهي كلها تدور حول الأسماء والصفات ، والتحذير من الشرك ، ومفهوم العبادة لله ...

والملاحظ أن هذا الاتجاه السلفي يحمل بعض العنف ويثير نوع تطرف ، فهم لا يتسامحون مع أي اتجاه مخالف ، ويطلقون ألسنتهم بالسوء على كل من هدام ..

فلا فرق عندهم بين الأشعري والشيوعي والشيوعي ..

ولا بين الصوفي والوثني ..

ولا بين المعتزلي والمجوسي ..

وأكثر الألفاظ استخداماً لديهم ونطقاً بها هي ألفاظ التكفير والتفسيق والتبديع ..

الاتجاه الاعتزالي :

معظم أقسام الفلسفة في الجامعات المدنية تبني الاتجاه الاعتزالي ، كما يدافع عنه كثير من تلاميذ المستشرقين الذين درسوا في جامعات أوروبا ..

ومن جهة أخرى فإن هناك صلة قوية بين الاعتزال والتشيع قديماً وحديثاً ، فقد نشأ وأصل بن عطاء مؤسس فرقة المعتزلة في بيت محمد بن الحنفية وأخذ عنه العلم ..

وتلميذ زيد بن علي زين العابدين بن الحسين علي يدى وأصل بن عطاء واقتبس منه أصول الاعتزال ..

والتقى الريدية مع المعتزلة في مواجهة الأمويين والعباسيين ..
ولا تزال كتب الشيعة والمعتزلة تشترك في قضايا عقديّة كثيرة مثل
التوحيد والعدل والقضاء والقدر ..

ومن أعجب الأمور أن كلا من الاتجاه السني والشيعي والاعتزالي
يتخذ من الإمام علي بن أبي طالب مبدأ له ..

فعبد القاهر البغدادي^(١) ت ٤٢٩ هـ جعل أوله المتكلمين من الصحابة
علي بن أبي طالب حيث ناظر الخوارج في مسائل الوعد والوعيد، وناظر
القدرية في المشيئة والاستطاعة، وذكر المعتزلة^(٢) في صدر طبقتهم الأولى
الإمام علي بن أبي طالب، وقام الفكر الشيعي كله انتصاراً للإمام علي رضي
الله عنه ..

• • •

كلمة أخيرة:

وأخيراً فإن لي كلمة أهمس بها في اذن كل داهية ، واضعها أمام كل
مسلم وهي :

إن لكل مجتهد نصيباً ، ويجب أن لا يعيب بعضنا على بعض في إطار
ضوابط الاجتهاد وحدود معالم الفكر الراشد ..

(١) في كتابه « الفرق بين الفرق » تحقيق الشيخ محي الدين عبد الحميد
ط مكتبة صبيح .

(٢) راجع كتاب « فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة » تأليف أبي القاسم
البلغعي والقاضي عبد الجبار والحاكم الجشمي - تحقيق فؤاد سيد ط الدار
التونسية للنشر سنة ١٣٩٣ هـ ١٩٧٤

وإذا كنت أيها العالم اجتهدت فوصلت إلى مذهب معين ، أوجهت
اتجاهاً خاصاً فذم الآخرون يجتهدون مثلك ويرجعون ما تظمن إليه
فوسمهم ويستقر عليه تفكيرهم طالما جمعنا كلمة ، لا إله إلا الله ، محمد
ورسوله الله .

وإلا فإنك متسلط تدعى العصمة لنفسك وتقذف بالغيب من مكان

بعيد ..

وتعجبني كلمة للدكتور عبدالحليم محمود - رحمه الله - تؤكدنا الأيام
والتجارب، وأصبحت أكثر وعياً بها بعد أن كنت متردداً في قبولها، وهي:
لا تزال تلك القوى الثلاث (النسيون والبصيريون والعقليون) تتصارع
حتى عهدنا هذا، ونعتقد أنها ستستمر ، ذلك أنها تمثل نزعات فطرية في
بني الإنسان ..

فبعضهم واقعي يتجه إلى النص ولا يريد ، أو لا يمكنه أن يسير إلى
أبعد منه ..

وبعضهم يحتفظ بشخصيته قوية جارية لاتلين ، فهو عقلي أو اعتزالي .

وبعضهم رقيق الشعور ، مرهف الحس ، ملائكي النزعة فهو بصيري
أو صوفي ..

نزعات ثلاث تقوم على فطر مختلفة ، وهذه الفطر ستستمر في بني البشر
مادام على وجه الأرض أفراد من النوع الإنساني ، ومن هنا كان خطأ
هؤلاء الذين يجارون التصوف أو الاعتزال أو النسيين ، على أمل أن
يقضوا على اتجاه من هذه الاتجاهات قضاء تاماً (١) .

(١) المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي مع أبحاث في التصوف

ودراسات عن الإمام الغزالي للدكتور عبدالحليم محمود ص ٢٧٣ ط ٤ ،

دار الكتب الحديثة سنة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

ولنعلم أن الجهد العقلي فيما وراء الطبيعة محدود وضامر، وأن المسألة
أصحق من أن يحيط بها البشر إحاطة تامة ..

ولقد أدرك المخلصون من العلماء والراستخون من الأئمة أن المعجز
عن الإدراك إدراك، وأن التور الإلهي هو الذي يمنح الحقائق ثباتها
ويقينها ..

ولهذا قال الإمام الرازي :

نهاية إقدام العقول عقابا وغاية سعى السالمين ضلالا
وأرواحنا في وحشة من جسامنا وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال الشهرستاني :

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعا كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادم

وقال أبو المعالي الجويني عند موته :

ها أنا ذا أموت على عقيدة أمي ۱۱

أو قال : على عقيدة مجاز أهل نيسابور (۱) ۱۱

وهذا يدفعنا إلى أن يترفق كل منا بالآخر، ويلتمس له الأهدار،
وندع للحوار موضعا ..

وإن الخطر الذي يهدد العقيدة الإسلامية اليوم ليس من داخل الفرق

(١) راجع شرح الفقه الأكبر للملا علي القاري ص ١١ طداد الكتب
العلية - بيروت .

الإسلامية وإنما من التيارات الواحفة والمذاهب الهدامة الوافدة التي تسرى مع الهواء وتتشكل حسب الظروف والأحوال ..

ويتمثل ذلك في الثالث الحديث :

— الخطر الصهيوني .

— الفكر المادي .

— اليسار الإسلامي المزعوم .

وهذا الثالث أفرخ الانحلال الخلق وعبادة الشيطان ..

فأحوج المسلمين إلى الاعتصام بمجبل الله والاجتهاد المستنير تأصيلاً للعقيدة ، واستمساكاً بالوحي ، وعروجاً في سلم الحضارة ، وقيادة للبشرية إلى مشرق الحق .. ومطلع النور .. وشاطئ الأمان ..

المبحث الثالث

الإسلام وتقرير العقائد

- المعجزة العقلية .
- أصول التفكير .
- المعرفة والتقليد .
- مصادر العقيدة .
- الحكم وأنواعه .

المعجزة العقلية

يتفرد سيدنا محمد ﷺ من بين سائر الأنبياء بأن معجزة كتابه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يحمل دليhle معه وينادى صباح مساء:

« وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، » (١).

لقد كان لكل نبي معجزة تتناسب وعصره الذي عاش فيه، فومى عليه السلام بعث في قوم انتشر فيهم السحر، فكانت معجزة أن انقلب عصاه حية تسمى « فإذا هي تلقف ما يأفكون، فأدرك سحرة فرعون الفرق بين فعل الخلق وفعل الخالق » فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى، .

وأرسل عيسى عليه السلام إلى قوم برعوا في الطب واشتهروا به فكانت معجزة شيفا يفوق طورهم ويملو مقدراتهم .

قال الله تعالى :

« ورسولا إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرا ياذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى ياذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، » (٢).

(١) سورة البقرة الآية ٢٣

(٢) آل عمران الآية ٤٩

ثم كانت أمة العرب ، ولها شأنها في الغلب بالقول ، والبيان في الحججة ، والسبق إلى امتلاك المشاعر والتأثير الوجداني ، فبعث محمد ﷺ من تلك البيئة ومعها القرآن المجيد فسجدوا له قبل أن يؤمنوا لسمو بلاغته وعظم معانيه ، وتروى كتب السيرة أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدا في قومه قال يوما وهو جالس في نادي قريش :

يا معشر قريش ألا أقوم فأكله وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حوزة رضى الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرُونَ .

فقالوا : بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكله .

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال :

يا ابن أخى إنك منا حيث علت من البسطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آباءهم ، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال الرسول : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وإن كنت تريد به مملكتنا علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك ريبا^(١) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

(١) الرقب - بفتح الراء وكسرها - ما يترامى للإنسان من الجن .

فلما فرغ عتبة من عرضه قال له الرسول الكريم : فاستمع مني
ثم قرأ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت
آياته قرآنا هريرا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم
لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن
يتناوبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي
أنما ألهمكم إليه واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ، .

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرأها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت
لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما حتى انتهى الرسول إلى السجدة
منها فسجد ثم قال :

قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

وفي رواية فلما بلغ قوله تعالى « فإن أعرضوا فقل أندرتم صاعقة
مثل صاعقة عاد وثمود ، .

قال عتبة : حسبك حسبك ، وأمسك علي فيه وناشده بالرحم ، ثم رجع
إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جلس ، قالوا ما وراءك ، قال :

ورأيتني سمعت قولاً واثقه ما سمعت مثله قط ، واثقه ما هو بالسحر
ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا
بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه فواثقه ليكون لقوله الذي سمعت
نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر علي العرب فلكم
ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأي فيه فأصنعوا ما بدا لكم ... (١) .

هذا وحيث كانت رسالة الإسلام خاتمة لمطاف الرسالات الإلهية ،
وعامة لجميع الأزمنة والإمكنة ، وخاتمة إلى أن يرث الله الأرض ومن
عليها - فقد ارتكزت على التفكير العلمي وأشادت بالعقل إذ هو أعدل
الأشياء قسمة بين البشر ، ولقد بدى القرآن بتلك الإشراقاة الأولى للوحي
في قوله سبحانه : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق .
اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم . .

هذه الإشراقاة الأولى أرشدت إلى بداية الطريق العلمي وهو الأمر
بالقراءة والكتابة في قوله : اقرأ ، فإن القراءة تستلزم مقروما
أى مكتوبا .

ثم بينت القانون العام الذي يحكم الطريق وهو أن يسلك باسم الله
واهب الملك والملكوت ، ثم ألححت إلى أن يكون العلم بحثا عن حقائق
الأشياء ، ورمزت لذلك بالعلق الذي هو أحد أطوار الجنين في رحم أمه ،
ويقوله : ما لم يعلم ، من مكونات نواميس الأرض والسماء .

وحين اشتد عناد المشركين للدعوة الإسلامية نزل القرآن يقول :
قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ،
ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، (٢) .
وحول هذه الآية الكريمة يقول الإمام الزمخشري :

والمعنى إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق ، وهي أن تقوموا

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٩٣ ط الباني الحلبي سنة ١٩٥٥

(٢) سبأ ٤٦

لوجه الله خالصا متفرقين اثنين اثنين ، وواحد واحد ، ثم تفكروا في أمر محمد ﷺ وما جاء به ، أما الاثنان فيتفكران ويعرض كل واحد منها محضولة فكره على صاحبه وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين لا يميل بها اتباع هوى ، ولا يلبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسنته .

وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء ويجارى أحوالهم .

والذي أوجب تفرقهم مثل وفرادى أن الاجتماع بما يشوش الخواطر ، ويعمى البصائر ، ويمنع من الروية ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف ، ويشور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا نصرة المذهب .

وأراهم بقوله ما بصاحبكم من جنة ، أن هذا الأمر العظيم القى تحته ملك الدنيا والآخرة جميعا لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلا ن :

إما مجنون لا يبالي باقتضاحه إذا طولب بالبرهان فمجز بل لا يدري ما الاقتضاح وما رقة العواقب .

وإما عاقل راجح العقل ، مرشح للنبوة ، مختار من أهل الدنيا لا يديه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه ، وإلا فما يجدى على العاقل دعوى شيء لا بينة له عليه .

وقد علمت أن محمدا ﷺ ما به جنة بل علمتوه أرجح فريش عقلا ، وأزهم عقلا ، وأثقبهم ذهنا ، وأصلهم رأيا ، وأصدقهم قولا ، وأزهم نفسا ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به . (١) ص ٨١ .

(١) تفسير الكشاف - ٣ ص ٢٩٤

ولعل هذا الفرق بين المعجزة العقلية لسيدنا محمد ﷺ والمعجرات
الحسية لباقي الأنبياء هو ما أشار إليه المصطفى الكريم عندما قال - كافي
الحديث المتفق عليه - ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات
ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرسلوا
أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

أصول التفكير

من هذا المنطلق أرسى القرآن قواعد البحث وأصول التفكير على النحو التالي :

١ - حرر العقل من رواسب التقليد وعادات البيئة فقال : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (١) .

٢ - نهي على أتباع الظن والهوى والاسترسال مع الباطل ، فقال : « وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » (٢) .

٣ - أرشد إلى العناية بحواس الإنسان والحفاظ على سلامة استخدامها ، فقال : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » (٣) .

٤ - أمر بالبحث في ظواهر الطبيعة ونواميس الكون فقال :

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبك فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » (٤) .

٥ - لفت النظر إلى قوانين الاجتماع وسنة الله فيما خلق من الأمر

(٢) النجم ٢٨

(٤) البقرة ٦٤

(١) الزخرف ٢٣

(٣) الإسراء ٣٦

وأكد استمرارها، فقال: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين»، (١).

وحرصا على هذه الأصول قرر القرآن عقائد الإيمان كلها مدعمة بالحجة والبرهان، وليس به قضية بلا دليل أو دعوى بلا بينة، حتى في باب الأدب الخلقى فقال: «ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم»، (٢).

والشعار الذي رفعه القرآن في حجاجه مع المخالفين هو:
«قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا»، (٣).
«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»، (٤).

إن القرآن المجيد قد أحصى الجدل الذي دار على عهد النبوة إحصاء دقيقاً، وفصل الشبهات تفصيلاً كاملاً في الألوهية والوحدانية، والنبوة والرسالة، والبعث والنشور، وأردفها بالدليل والبرهان، وما على القاريء الكريم إلا أن يفتح المصحف الشريف حيث شاء ليجد صدق ما نقول. وهذه نماذج لبعض عقائد المخالفين وكيف دفعها القرآن، أسوقها - كما وزدت - آيات بينات:

بالنسبة للدهريين الذين كذبوا بقاء الآخرة وقالوا:

«هيات هيات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين»، (٥).

(٢) فصلات ٣٤

(٤) النحل ٦٤

(١) آل عمران ١٣٧

(٣) الأنعام ١٤٨

(٥) المؤمنون ٣٦

الرد :

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » (١) .

وبالنسبة للشركين القائلين :

« أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجيب » (٢) .

الرد :

« لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » (٣) .

« وما كان معه من إله إذا ذهب كل إله بما خلق، ولعلنا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون » (٤) .

وبالنسبة للتصاري القائلين :

« إن الله هو المسيح ابن مريم » (٥) .

« إن الله ثالث ثلاثة » (٦) .

(٢) ص الآية ٥
(٤) المؤمنون الآية ٩١
(٦) المسائدة الآية ٧٣

(١) الحج الآية ٥
(٣) الأنبياء الآية ٢٢
(٥) المسائدة الآية ٧٣

الرد:

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون » (١) .

« ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ، قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو الصميع العليم » (٢) .

(١) سورة آل عمران الآية ٥٩

(٢) سورة المائدة الآية ٧٥

المعرفة والتقليد

تأسيسا على القواعد السابقة اتفقت كلة جمهور المسلمين على أن عقائد الإسلام في الألوهية والنبوة يجب العلم بها والبحث فيها بمراتب ودليل قاطع، للوصول إلى اعتقاد جازم مطابق للواقع .

ولما كانت الأذلة التفصيلية وردة الشبهات لا تيسر لكافة الناس قالوا إن المعرفة الإجمالية واجبة على كل مكلف بمعنى أن يسأل المرء عن دليله على وجود الله فيقول : هذا العالم أو خروج هذا النبات أو وجود الإنسان .

ويكتفى بذلك من غير بيان لعقائد الصنع وغرائب التدبير، ومن غير مقدرة على دفع ما يثيره الخصوم .

وإذا كان الإنسان أهلا للنظر والبحث العلمي وجب عليه تفصيلا معرفة ما يجب وما يجوز وما يستحيل في جانب الألوهية والرسالة .

وهناك بحث طريف بين علماء التوحيد عن أول واجب على المكلف .

وجملة الأقوال اثنا عشر حكاهما الإمام الباجوري في حاشيته هي :

أولها : ما قاله الأشعري إمام هذا الفن أنه المعرفة .

ثانها : ما قاله الأستاذ أبو إسحق الأسفرائيني أنه النظر الموصل للمعرفة ويعزى للأشعري أيضا .

وثالثها : ما قاله القاضي الباقلاني أنه أول النظر أي المقدمة الأولى منه نحو قولك : العالم يتأثر بكل حادث لا بد له من محدث ، فمجموع المقدمتين هو النظر ، والمقدمة الأولى هي أول النظر .

رابعها : ما قاله إمام الحرمين أنه القصد إلى النظر أى تفريغ القلب عن الشواغل . وعزى للقاضى أيضا .

خامسها : ما قاله بعضهم أنه التقليد^(١) .

سادسها : أنه التلق بالمشاهدتين .

سابعها : ما قاله أبو هاشم فى طائفة من المعتزلة وغيرهم أنه الشك .

ورد بأنه مطلوب ذواله لأن الشك فى شىء من العقائد كفر فلا يكون مطلوباً حصوله .

ولعلمهم أرادوا ترديد الفكر فىقول إلى النظر .

ثامنها : أنه الإيمان .

تاسعها : أنه الإسلام .

وهذان القولان متقاربان ، مردودان باحتياج كل من الإيمان والإسلام للمعرفة .

عاشرها : اعتقاد وجوب النظر .

حادى عشر : أنه وظيفة الوقت كصلاة ضاق وقتها فتقدم^(٢) .

(١) ليس معناه الاكتفاء بالتقليد بل هو يبدأ تقليداً للحق ثم يتحتم عليه معرفة الدليل ، فالخلاف هنا فى أول واجب فقط .

(٢) فقد يكون النظر أو التلق أو المعرفة حسب طبيعة الموقف ، فمن يريد أن يعصم نفسه وماله فالتلق مقدم ، ومن يريد أن يختار ديناً فالنظر مقدم ، ومن ارتضى ديناً فالمعرفة مقدمة لأنها الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل . وهكذا كمن أخر أداء صلاة الظهر مثلاً حتى قارب وقت العصر ، فأول واجب عليه هو أداء صلاة الظهر ، وهى مقدمة على التى مضى وقتها .

ثاني عشر : أنه المعرفة أو التقليد أى أحدهما لا بعينه ، فيكون غيراً بينهما .

ثم قال الإمام الباجورى : « والأصح أن أول واجب مقصداً المعرفة ، وأول واجب وسيلة قريبة النظر ، ووسيلة بعيدة القصد إلى النظر ، وبهذا يجمع بين الأقوال الثلاثة ، .

هذا وقد أجمع العلماء على نقصان إيمان المقلد الذى يؤمن إيماناً جازماً بالحق فى الإله والنبي دون معرفة دليل تفصيلي ولا إجمالى ، لأن القرآن يقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، » (١) .

وغالى بعضهم فزعم أنه لا نجاة معه وأن المقلد كافر لأن المعرفة واجبة وجوب الأصول، وأن الأمر القرآنى صريح بالعلم وليس بالإيمان وحده ، قال تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ، » (٢) .

وقد يتساءل إنسان ويقول :

دع عنك هذا التشدد ، ولسنا فى حاجة إلى كل هذه التعقيدات فإن دين الله يسر ، وغاية جهدنا أن نصل إلى إيمان لإيمان العوام ، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ مقلتين لا شأن لهم بدليل أو برهان ، وما علم الرسول أحداً دليلاً على وجود الله .

وأقول : رويدك يا أخى . . . ١١ . .

إن الأعرابي فى باديته لا يضارعه الآن من يحمل أعلى الشهادات فى اللغة والأدب ، هذا الأعرابي قال فى جاهليته : البعرة تدل على البعير ، والآثر يدل على المسير ، فسماه ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على العلم الخبير .

(٢) سورة محمد الآية ١٩

(١) سورة الزمر الآية ٩

كذلك سجد هذا الاعرابي للقرآن المجيد قبل أن يؤمن ، وعرف
أمراره البلاغية وإعجازه اليباني .

هذا العقل الفطري تلقى هدايات القرآن فأمن بها عن اقتناع ، فهذا
الأمين محمد ما عرف منه كذب ، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ، وهذه
الكواكب الساهرة لا بد لها من مكوكب ، والذين الذين جاء به محمد يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر ، كما قال جعفر بن أبي طالب لنجاشي
الخبشة :

أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي
الفواحش ونقطع الرحم ونسئ الجوار ويأكل القوي منا الضعيف ..
فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته
وعفافه ، فدعانا إلى الله — عز وجل — لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا
نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق
الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم
والعصا، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور وأكل مال اليتيم وقذف
المحسنة ، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا — وأنخذ يعدد أمور
الإسلام — فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ... (١)

هكذا تكلم جعفر بن أبي طالب في صدر الإسلام يوم هاجر المسلمون
إلى الخبشة ، ولا أظن إنسانا أسلم أمام المصطفى الكريم ﷺ إلا وتمقل
هذه المعاني كلها .

إن الإسلام يوم دعا الناس في مكة إلى عقائده لم يكن لديه مغريات
مادية ، فالحق وحده له سناؤه وصورته ، بل لقد رفض منطق المساومة

(١) السورة النبوية لابن هشام - ١ - ٢٢٦

وتخطى موقف الترغيب المادى السخى، وانحنى التاريخ وهو يستمع لسيدنا محمد ﷺ قائلاً: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري حلى أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وحين حاولت أم سعد بن أبى وقاص صرف فلذة كبدها عن هذا اللين الجديد وأضربت عن الطعام والشراب كي تموت صبراً ، ويعير بها ولدها إن لم يرجع ، قال لها بلسان المؤمن حلى بصيرة : والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا ، فكلى أو لا تأكلى .

ولقد ذاق المسلمون ألوان الأذى وصنوف الاضطهاد، إبتداء من التعذيب الفردى، إلى الحصار الاقتصادى لجماعة المؤمنين مدة ثلاث سنين في شعب بالجبل أكلوا خلالها أوراق الأشجار ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضمهقوا وما استكانوا بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فهل كان ذلك كله ناشئاً عن تقايد أسمى وانسياق مجرد وارتجال ساذج ؟

سبحانك هذا بهتان عظيم .

لقد رفض القرآن منطق الإكراه في الدين فالإكراه لا يغير ما استقر عليه القلب من إيمان أو كفر، فمن أكره على الإيمان فهو كافر، ومن أكره على الكفر فهو مؤمن ، قال الله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدوراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم » (١) .

وكذلك رفض القرآن إيمان الإلجاء والاضطرار دون وعى وبصيرة وذلك عندما تمتت المشركون وألقوا عقولهم :

(١) سورة النحل الآية ١٠٦

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وحنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بآية والملائكة قبلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرؤيتك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه » (١) .

وفي رفض منطق الإلجاء يعلل القرآن المجيد هذا الرفض بعدة أمور منها :

أولاً : أن النبوة في حقيقتها اصطفاء من الله وتكليف لعبده في تبليغ رسالات الله وليس له من الأمر شيء . وأن الله هو وحده الذي بيده تصريف الأمور ، وإلى هذا يشير قوله تعالى : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً » (٢) .

ثانياً : أن الرسالة الخاتمة التي بعث بها سيدنا محمد ﷺ تخاطب العقل الراشد الذي يحرص على مدى الأجيال ، ووعى عبرة القرون والتاريخ ، وفي ذلك يقول القرآن : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلوا بها ، وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً » (٣) .

ثالثاً : أن الإيمان المعتبر شرعاً هو الإيمان الاختياري القائم على الحجة وليس إيمان الدهشة أو الاستهواء .

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : « لعلك باخع نفسك أن لا يكون مؤمنين ، إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعتاقهم لها خاضعين » (٤) .

(١) سورة الإسراء الآية ٩٠

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٣

(٣) سورة الإسراء الآية ٥٩

(٤) سورة الشعراء الآية ٣

وعما لا شك فيه أن الصحابة جميعاً تلقوا القرآن من فم رسول الله ﷺ وعقلوه، وأدركوا مقاصده وهم الذين شاهدوا النبوة في لآلاتها وما ينورا المعجزات وسأروا الوحي في تشريعه، ولمسوا الحقيقة عن قرب، ولذلك كانوا خير القرون !

يقول ابن العربي - كما نقله في العقيدة الصغرى للسوسى :

اعلوا - عليكم الله - أن هذا العلم المكلف به لا يحصل ضرورة^(١) ولا إلهاماً^(٢)، ولا يصح التقليد فيه^(٣)، ولا يجوز أن يكون الخبر^(٤) طريقاً إليه، وإنما الطريق إليه النظر، ورسمه^(٥) أنه الفكر المرتب في النفس، على طريق يقضى إلى العلم أو الظن، يطلب به من قام به علماً في العمليات^(٦) أو غلبة ظن في المظنون^(٧).

ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك جميع العقلاء، أو إلهاماً لوضع الله تعالى ذلك في قلب كل من ليحقق به التكليف، وأيضاً فإن الإلهام نوع ضرورة وقد أبطنا الضرورة^(٨).

(١) بلا نظر واستدلال .

(٢) الإلهام إلقاء الله شيئاً من الخير في القلب بطريقه الفيض .

(٣) التقليد الأخذ بقول الغير بلا معرفة للدليل .

(٤) الخبر هو النص الشرعى من الكتاب والسنة والمراد ما عدا

السمعيات التي طريقها التلق عن المعصوم بما لا مجال للاجتهاد فيه .

(٥) رسمه أى رسم النظر وتعريفه .

(٦) العمليات أى العقائد .

(٧) المظنون مسائل الفروع الفقهية .

(٨) فى قوله : ولو كان هذا العلم يحصل ضرورة لأدرك ذلك

جميع العقلاء .

(٦ - التمهيد)

ولا يصح أن يقال إنه تعالى يعلم بالتقليد - كما قال جماعة من المبتدعة -
لأنه لو عرف بالتقليد لما كان قوله واحداً من المقلدين^(١)، أولى بالاتباع
والانقياد إليه من الآخر، كيف وأقوالهم متضادة ومختلفة .

ولا يجوز أيضاً أن يقال إنه يعلم بالخبر لأن من لم يعلم الله تعالى كيف
يعلم أن الخبر خبره .

ثبت أن طريقه النظر، وهو أول واجب على المكلف، إذ المعرفة
أول الواجبات ولا تحصل إلا به، فبضرورة تقديمه عليها ثبت له صفة
الوجوب قبلها، وإيجاب المعرفة بالله معلوم من دين الأمة ضرورة .
أ . م . (٢)

(١) المقلدين بفتح الهمزة - اسم مفعول .
(٢) حاشية على شرح أم البراهين ، تأليف محمد بن أحمد بن عرفة
الهمسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ وبهامشه شرح أم البراهين لمحمد بن يوسف
السبوسي الحسيني ص ٥٨ مطبعة الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ ١٩٣٩ .

مصادر العقيدة

العقيدة هي التي تتعلق بقضايا الوجود الكبرى في الذات الإلهية والنبوة
والمسيح ، والتي يتوقف عليها الإيمان والكفر ، فمن أيقن بها وصدق
وأذعن فهو المؤمن ومن أنكر وكذب وارتاب فهو الكافر ..

هذه العقيدة يحكمها العقل ويصح مسارها الوحي مثلا في القرآن
الكريم والسنة النبوية الشريفة ..

العقل :

إن العقيدة — في المقام الأول — عقل ، وما لم تكن عقلا فليست
بدين صحيح ، والذين يطمسونه معالم العقل في العقيدة إنما يفتحون أبوابا
للشيطان، تسوقهم إلى الوثنيات والشرافات والكهوت الأسود والطلاسم
الغمياء ..

فالعقل هو مناط التكليف الشرعي ، وإذا سلب الله ما وهب من
العقل سقط ما وجب من الشرع ، ولا دين لمن لا عقل له .. إن العقل
وحده هو الذي يثبت وجود الله تعالى وكاله اللائق بذاته المقدسة .

وإن العقل وحده هو الذي يثبت الوحي والاصطفاء للأنبياء بدلالة
المعجزة ، فالعقل لا يمكن معجزة يقر بها العقل فلا نبوة ..

والذين يجعلون الأخلاق العظيمة والأحوال الشريفة للأنبياء بدلا
عن منطق العقل وأهمون . فليس كل صاحب خلق يكون نبيا .. وإن
العقل هو الذي يقدم دليل الجواز والإمكان لما وراء الطبيعة من أمور
البعث ، ولو كانت منافية لمقتضى العقول ما كلف الله بها البشر ، ولما قبلها
العقل ..

القرآن :

نحن لانأله العقل ولا تمنحه أكثر مما هيأه الله له ، بل نضعه في موضعه الصحيح ، ولا نقول إن العقل يستقل بالعقيدة كلها بل يحتاج إلى نور الوحي بمثلا في القرآن الكويم ليقدم للإنسان الصورة الصحيحة للوجود الإلهي الأعلى وأسماء الله الحسنى وصفاته المقدسة ، وليرشده إلى المنهج في عبادة الحق ومعاملة الخلق . .

وليفصح له عن المستقبل والمصير الإنساني في البعث والحشر والحساب والجزاء . .

وليقص القصص الحق عن تاريخ الأنبياء وأصول رسالاتهم ومناهج دعوتهم . .

والقرآن قطعي الثبوت متواتر ، محفوظ بعناية الله جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها تحقيقا للوعد الإلهي « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ، (١) » .

لكن معاني القرآن قد تكون قطعية وقد تكون ظنية ، فما كان قطعي الهدالة فهو عقيدة يترتب عليها الإيمان والكفر ، مثل قوله تعالى « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وما كان ظني الهدالة فليس بعقيدة حتمية بل يجوز حولها الاجتهاد وذلك كالصفات الخيرية التي جاءت في آيات التنزيل الحكيم مثل قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى ، (٢) » وقوله جل شأنه « فإنك بأعيننا ، (٣) » .

(١) سورة الحجر — الآية ٩

(٢) طه — الآية ٥

(٣) الطور — الآية ٤٨

فهذه الآيات وأمثالها وإن كانت قطعية الثبوت غير أن دلالتها ظنية .

السنة :

تعد السنة النبوية مصدرا من مصادر العقيدة إلا أن مرتبتها بعد القرآن المجيد ، لأن أغلبها أحاديث آحاد لم تبلغ مبلغ التواتر . .

وجمهور العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد القطع ولذا يجب العمل بها في العبادات والمعاملات لأنه يكتفى فيها بالظن الغالب . .

أما العقائد في الإلهيات والنبوات والسمعيات فلا يترتب على ما يثبت بالسنة إيمان أو كفر ، لأنها ظنية الثبوت حتى ولو كانت قطعية الهدالة . .

فإن تطرق الظن للثبوت أو الهدالة يرفع اليقين ، فلا يصبح الأمر الثابت بالظن عقيدة يتحتم الالتزام به ، وتصدر على أساس منه أحكام الإيمان والكفر . .

وقد نهي الله تعالى أشد النهي عن اتباع الظن في العقائد فقال : « إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » (١) .

وتوعد المولى سبحانه أصحاب العقائد الواهية بالخزي في الدنيا والنكال في الآخرة فقال : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثأني عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » (٢) .

(١) سورة النجم — الآية ٢٣

(٢) الحج — الآية ١٠٨

وينبغي العلم بأن التوقف في قبول خبر الأحاد ليس ودا الحديث رسول الله ﷺ ، وإنما هو توقف في نسبه إلى الرسول الكريم ،

وقد تعلمنا في مصطلح الحديث أن معنى الحديث الصحيح هو ما اتصل سنده بالعدول الضابطين من غير شذوذ ولا علة ، وليس مرادا به القطع واليقين بصدوره عن رسول الله ﷺ فقد يكذب الصدوق.. وأن معنى الحديث المردود هو ما لم يتصل سنده بالعدول الضابطين ... الخ وليس مرادا به القطع واليقين بعدم صدوره عن الرسول ﷺ فقد يصدق الكذوب (١) . . . ١١ . .

ومن هنا فلا محل لقوله القائل :

« والعاقل يعلم أن الرسول معصوم في خبره عن الله تعالى ، لا يجوز عليه الخطأ ، فيجب عليه التسليم له والانقياد لأمره ، وقد علمنا بالاضطرار من دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول : هذا القرآن الذي تلقيه علينا ، والحكمة التي جئتنا بها قد تضمن كل منها أشياء كثيرة تناقض ما علمناه بعقولنا ، ونحن إنما علمنا صدقك بعقولنا ، فلو قبلنا جميع ما تقوله مع أن عقولنا تناقض ذلك لكان قد ساء فيما علمنا به صدقك . فنحن نعتقد موجب العقول الناقضة لما ظهر من كلامك ، وكلامك نمرض عنه ، لا نتلقى منه هديا ولا علما . .

لم يكن مثل هذا الرجل مؤمنا بما جاء به الرسول ، ولم يرض منه الرسول بهذا .

بل يعلم أن هذا لوساخ لما أمكن كل أحد أن يؤمن بشيء مما جاء به

(١) راجع تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للإمام السيوطي ، تحقيق د. عبد الوهاب عبد اللطيف ج ١ ص ٧٥ ط الثانية سنة ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م دار الكتب الحديثة

الرسول ، إذ العقول متفاوتة ، والشبهات كثيرة ، والشياطين لا تزال تلتقي
الوساوس في النفوس ، فيمكن كل أحد أن يقول مثل هذا في كل ما أخبر
به الرسول وما أمر به ، (١) .

هذا الكلام فيه مغالطة ، لأنه لا أحد يطعن في عصمة الرسول ﷺ
ولا في صدق خبره وإلا ما كان مسلماً أصلاً ، وإنما المسألة كلها في إثبات
الحديث ونسبته إلى الرسول . .

والظن ليس في قول الرسول وإنما الظن في نسبة القول إلى الرسول ،
والفروق واضح وكبير . .

ثم إن افتعال معركة بين النزع والعقل ليس في دين الإسلام ، فلا
تناقص بين الشرع والعقل ، وصدق الله حيث يقول ، ولو كان من عند
غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، (٢) .

وهناك مؤلفات كثيرة حول هذه القضية منها :

• فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، لابن رشد
(٥٢٠ - ٥٥٩٥) .

• درء تعارض العقل والنقل ، لابن تيمية (٦٦١ - ٨٧٢٨) .

إن العلاقة بين الشرع والعقل علاقة متلازمة ، لا انفصال بينهما ،
وإن الحقيقة لا تترامى إلا بهما معاً . .

(١) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العزيم المشق ص ٢٢٠ ط
المكتب الاسلامي سنة ١٣٩٩ هـ .

(٢) سورة النساء - الآية ٨٢ ، ونحن في دراستنا العقديّة قبلنا خبر
الواحد تغليبا لحسن الظنّ مالم يعارض قاطعاً عقلياً أو شرعياً ،
ومقصودنا هو تضيق شقة الخلاف ، ومنع أحكام التكفير ، ودعوة جميع
الفرق إلى الحوار . .

وقد عبر عن ذلك الإمام أبو حامد الخزالي (ت ٥٥٥هـ) فقال :
بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد ، والاعتقاد
على الصراط المستقيم ، فكلا طرفي قصد الأمور ذميمة ..

وأقرب يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر ، وينكر مناهج
البحث والنظر ، أو يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر ﷺ ،
وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر ١٤

وكيف يهتدى للصواب من اقتنى محض العقل واقتصر ، وما استضاء
بنور الشرع ولا استبصر ١٤

فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر ،
أولا يعلم أن خطأ العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر ١٤

هيات قد خاب على القطع والبتات ، وتعدر بأذياله الضلالات من لم
يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات ..

فقال العقل البصر السليم عن الآفات والآداء ، ومثاله القرآن الشمس
المنتشرة الضياء ، فأخلق بأن طالب الاهتداء ، المستغنى إذا استغنى
بأحدهما عن الآخر — في غمار الأغبياء ..

فالمعرض عن العقل مكثفيا بنور القرآن ، مثاله المعرض لنور
الشمس مغمضا للأجفان ، فلا فرق بينة وبين العميان ..

فالعقل مع الشرع نور على نور (١) ..

(١) الاقتصاد في الاعتقاد ص ٢ ط مكتبة صبيح سنة ١٣٨٢ هـ —

أقوال السلف :

ما وراء القرآن والسنة فأراء بشرية لأشخاص غير معصومين ،
يؤخذ منها ويرد عليها ، وقد تسمى أقوال السلف أو أقوال الصحابة
أو أقوال التابعين ..

والذين يبنون عقائدهم على هذه الأقوال يحتاجون إلى تنبيه مهم ، فإن
هذه الأقوال لم تخضع لمقاييس الضبط وأصول النقل وقواعد الإسناد
التي خضع لها الحديث الشريف ، اللهم إلا ما ندر منها ..

ومع التسليم الجدلي بصحة الإسناد فإن هذه الأقوال قد تكون
منقولة عن أتباع وأخبار أهل الكتاب ، ونحن لا نصدق أهل الكتاب
ولا نكذبهم فيما لا يخالف نصوصنا الشرعية ، ونرفض ما خالفها ..

وفي صحيح البخارى قال ابن عباس رضى الله عنهما :

كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذى أنزل على
رسول الله ﷺ أحدث ، تقرأونه معضالم يشب ، وقد حدثكم أن أهل
الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا
هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ١٥

ألا إنها كم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ١٤

لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذى أنزل عليكم ،

وفي البخارى أيضاً :

كان أهل الكتاب على عهد رسول الله ﷺ يقرأون التوراة
بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال عليه الصلاة
والسلام :

لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل
إلينا وما أنزل إليكم . .

وقد تكون أقوال السلف آراء اجتهادية قالوها بأنفسهم ، ولكل
مجتهد نصيب ، وهم رجال ونحن رجال وإن كان فضلهم في السبق ونصرة
الدين عند الله عظيما . .

وقد تكون أقوالهم آراء لا مجال للاجتهاد فيها ، ولها حكم الرفع إلى
رسول الله ﷺ ، ولكنها أدنى درجة من الرفع الصريح ، ومع ذلك فهي
لا تخرج عن كونها أحاديث أحاد لا تثبت بها عقيدة يترتب عليها إيمان
أو كفر . .

إن أمة الإسلام لا تقدر أحداً من البشر ، واسم القدوس من
الاسماء الحسنى لله تعالى . .

ونحن نحترم السلف الصالح ونجلهم وندعو لهم التزاماً بقول الله تعالى :
«والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا
بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم» (١)

ورحم الله ابن مسعود حين قال :

« من كان منكم متأسيا فليتأس بأصحاب محمد ﷺ ، فإنهم كانوا أبرهته
الامة قلوباً ، وأعمقها حلياً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ،
قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم
في آثارهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ،

إن التأسي بالسلف الصالح محمداً وشرفاً ، لكن التأسي لا يعنى عصمتهم
ولاحجية آرائهم واجتهادهم في عقائد الدين ، وإن هناك فرقاً واضحاً وجلياً
بين ما هو عقيدة يجب فيها القطع واليقين ، وبين ما هو عمل يكتفى فيه
بغلبة الظن ورجحان الدليل . .

الحكم وأنواعه

من الأمور ذات الأهمية التي توضح تقرير العقائد في الإسلام - أن العلماء على اختلاف مشاربهم يستخدمون الحكم العقلي في قضايا العقيدة، ويحتجون بها في بحوثهم الإيمانية، فيقولون: هذا الأمر واجب، وهذا الشيء مستحيل، وذلك جائز أو ممكن ..

ولولا أن للعقل أحكاما يتفق عليها العقلاء ويأتم بها العلماء ما شاع ذلك وساغ في علم العقيدة ..

ونحن نوضح هذه المسألة على النحو التالي:

أقسام العلم:

العلم في اصطلاح المنطقيين يراد به عموم الإدراك، وهو تحصيل صورة الشيء في العقل ..

وهو قسمان: تصور وتصديق:

(أ) التصور: هو حصول صورة الشيء في الالذهن من غير حكم عليه ..

مثاله إدراكنا للمفرد: محمد .

والمضاف: كتاب خالد

والمركب الوصفي: المهندس الماهر

فالذهن يتصور شخصية محمد أو كتاب خالد أو مهارة المهندس، لكن يظل متطلعا إلى ما تتم به الفائدة، فإذا هن محمد؟ هل هو مسافر أو مقيم أو شجاع أو صادق .. إلخ؟

وماذا عن كتاب خالد؟ هل هو مفيد أو ضار، أو كبير أو صغير... إلخ؟

وماذا عن المهندس الماهر؟ هل يحبه الناس أو يحترمونونه أو يسألون عنه...؟

(ب) التصديق: هو إسناد أمر لأمير إيجابيا أو سلبيًا..

مثاله: محمد رسول الله، في حال الإيجاب

كتاب خالد لم يصل، في حال السلب

والتصديق هو إذا كان للنسبة أي إدواك للرابطة بين طرفي القضية، يصل إلى التسليم والقبول، وقد يكون مطابقا للواقع كقولنا: انتصر صلاح الدين على الصليبيين، وقد يكون مخالفا للواقع مثل: انتصر جمال عبد الناصر سنة ١٩٦٧م..

وقد يكون التصديق ناشئا عن دليل كقولنا: الله واحد لا شريك له.

وقد يكون مجرد تقليد كقول النصارى: الله ذو أقانيم ثلاثة، فهذه للقضية كاذبة مخالفة للواقع واعتقاد النصارى لها اعتقاد ناشئ عن تقليد لا دليل عليه..

• • •

الحكم الشرعي:

هو خطاب الله تعالى المتعلق بفعل المكلف من حيث إنه مكلف..

وأقسام الحكم الشرعي خمسة هي:

١ - الوجوب إن اقتضى الخطاب الفعل اقتضاء جازما..

مثل: أقيموا الصلاة، فالأمر هنا للوجوب.

- ٢ - الندب إن اقتضى الخطاب الفعل اقتضاء غير جازم ..
مثل: أفشوا السلام ، فالأمر هنا للندب
- ٣ - التحريم إن اقتضى الخطاب ترك الفعل اقتضاء جازما ..
مثل: لا تقربوا الزنا ، فالنهي هنا للتحريم
- ٤ - الكرامة إن اقتضى الخطاب الترك اقتضاء غير جازم ..
مثل: النهي عن الصلاة في أوقات معينة أو النهي عن قراءة القرآن في
الركوع والسجود ..
- ٥ - الإباحة إن اقتضى الخطاب التخيير بين الفعل والترك ..
مثل: أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ..
قال الإمام السبكي صاحب متن جمع الجوامع :
والفرض والواجب مترادفان ، خلافاً لآبي حنيفة ، وهو لفظي .
والمندوب والمستحب والتطوع والسنة مترادفة ، خلافاً لبعض
أصحابنا ، وهو لفظي^(١) .
- فالحكم الشرعي مرتبط بالنص الديني ودلالته ، وقد قامت الشريعة
على هذه الأحكام التي فصلها علم الفقه وأصوله ..

• • •

الحكم العقلي :

هو إسناد أمرٍ لأمرٍ إيجاباً أو سلباً من غير توقف على عادة أو استناد
إلى شرع بل يكون العقل وحده هو الفيصل في هذا الحكم ..

(١) مجموع مبهات المتون ص ٨٧ دار الكتب العلمية - بيروت

وينقسم الحكم العقلي إلى ثلاثة أنواع :

١ - الواجب : هو الموجود الذي لا يتصور العقل عدمه ..
مثل : الله عالم .

فثبت العلم لله تعالى حكم عقلي واجب أزلا وأبدا، ولا يمكن تصور
الانفصال بين العلم والذات الإلهية .

٢ - المستحيل : هو المعدوم الذي لا يتصور العقل وجوده ..
مثل : شريك الله موجود .

فإثبات الوجود لشريك الله تعالى مستحيل، لأن الشريك معدوم
لا يتصور العقل وجوده أزلا ولا أبدا ..، والعقل حاكم بأن تعدد
الآلهة باطل مستحيل ..

٣ - الجائز أو الممكن : هو ما يتصور العقل وجوده تارة وعدمه
أخرى ..

مثل : العالم موجود .

فإثبات الوجود للعالم يمكن أو جائز، لأن العقل يتصور العالم معدوما
مرة وموجودا أخرى، فالإنسان يموت ويحيا، والشمس تشرق وتغرب،
والقمر يطلع ويغيب، والنبات ينمو ويندثر، والمطر ينزل وينقطع،
والحريش يذوب ويذول، والبحر يعتريه المد والجور، وهكذا كل شيء في
هذا الوجود، والذي يقبل الوجود والعدم هو الممكن أو الجائز العقلي ..

الحكم العادي :

ويدخل في الجواز العقلي الحكم العادي المبني على العادة أو التكرار،
فما قد نسميه واجبا في العادة أو مستحيلا في العادة هو جائز عقلا، يقبل
الوجود تارة والعدم أخرى ..

فإذا قلنا: النار محرقة بناء على أن العادة جرت بأن النار تحرق ما يجاورها وتكرر ذلك كثيرا، فهذا حكم عادي واجب، لكن هل ثبوت الإحراق للنار لأنها سبب فيه أو علة مؤثرة؟

هنا تأتي نظرية السببية، ويقول أهل السنة إن الفاعل هو الله وحده، ولا مؤثر في الوجود غيره، وثبوت الإحراق للنار على طريق السببية والعادة وهو غاية ما يثبت به الحس الظاهر من الاقتران بين الإحراق والنار.

وإذا قلنا: يستحيل رؤية من في المشرق لمن في المغرب فهذا حكم عادي يجوز تخلفه، وقد كان الأقدمون يجعلون هذه الاستحالة عقلية لكن الحس المشاهد الآن يبطل ذلك فأكثر أجهزة التليفزيون والأقمار الصناعية التي تنقل الناس إلى مواقع الأحداث لحظة بلحظة ..

فكل ما أثبتته التجربة أو جاء به التكرار هو حكم عادي يلحق بالجائز العقلي الذي يمكن تخلفه .. وممن تجارب أثبتها العلماء بالأمس وتعضوها اليوم، وممن أحكام بليت على تكرار ثم تخلفت ..

• • •

والأحكام في علم العقيدة ترتبط بالحكم العقلي بأنواعه الثلاثة من الوجوب والاستحالة والجواز، ويستخدم ذلك في مباحث العلم من الإلهيات والنبوات والسمعيات .. فيقال في الإلهيات :

يجب لله تعالى كل كمال ..

ويستحيل عليه تعالى كل نقص ..

ويجوز في حقه تعالى فعل كل ممكن وتركه ..

ويقال في النبوات :

يجب للأنبياء الصدق والأمانة والتبليغ والفظانة ..

ويستحيل عليهم الكذب والخيانة والكتبان والبلادة . .
ويجوز في حقهم ما يجوز على سائر البشر مما لا يقدر في نبوتهم . .
ويقال في السمعيات :

إن عذاب القبر ونعيمه والحشر والبعث والميزان والصراط أمور
جائزة عقلا، ورد بها النص الشرعي فيجب الإيمان بها . .
فهي أمور لا يحيلها العقل ولا يوجبها فتبقي في دائرة الإيمان العقلي،
فإذا جاء الخبر الصادق عن المعصوم بثبوتها وجب الإيمان بها فالمدار على
صدق الخبر . .

المبحث الرابع

خصائص العقيدة الإسلامية

- صوت الفطرة
- دعوة الأنبياء
- توحيد القرآن
- الدين الخالص
- آفاق عقيدة التوحيد :
- أفق الاسم
- أفق العلم
- أفق الوجدان
- أفق الاجتماع
- أفق الذكر

صوت الفطرة

المقيدة الإسلامية تلخص في كلمتين اثنتين هما :

لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

وهذه المقيدة من الوضوح والبس ، ومن العمق والحكمة ، ومن الصدق والحق ما يجعلها تسرى في كيان الإنسان سريان الدم في العروق ، وتتغلغل في أعماقه فتستقر في قرار مكين من قلبه وعقله ..

فهي قضية فطرية ينادى بها الإنسان في ظلمات البر والبحر ، ويهتف بها وسط أمواج الحياة ، وتربطه بمخلوقات الله العديدة والعجيبة في منظومة روحية تنطق بلسان لا ترد حجته :

(ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلي الكبير) (١) .

ورسالة سيدنا محمد ﷺ أوضح من الشمس في رابعة النهار ، فقد أدهى النبوة ، وأيده الله بالمعجزات ، وأجرى على يديه خوارق العادات ، واجتمع له ﷺ من شرف النسب ، وعطر السيرة ، وكرم السجايا ما لا يجتمع إلا لبشر يوحى إليه ، وإنسان اصطفاه الله للنبوة .

هذا وقد أخذت قضية الفطرة بحثاً لدى اللغويين والمناطقة وأهل المقيدة ..

فماذا تقول اللغة؟

وماذا يرى المنطق؟

وماذا تريد العقيدة؟

اللغة تقول :

فطر الله الخلق، وهو فاطر السموات أى مبتدعها ..

(وكل مولود يولد على الفطرة) أى على الجبلة القابلة لمن الحق ...

وفطر هذا البئر، وتفطرت اليد والثوب؛ تشققت ..

وفطر ناب البعير : طلع .

وفطرت المرأة المعجزة : خبزته من ساعته قبل أن يختمر ..

وجلد فطير : لم يلق في الدباغ ..

وكلام يفطر الصوم : أى يفسده ..

وإذا غربت الشمس فقد أفطر الصائم : أى دخل وقت الفطر ..

ومن المجاز :

لاخير في رأى الفطير (المتسرع الذى لم يختمر ولم يناقش بروية) ..

وتقول : وأيه فطير وله مستطير^(١) .

وعلم المنطق :

يقسم القضايا إلى يقينيات وغير يقينيات ..

واليقين هو اعتقاد أن الشيء كذا اعتقاداً يقينياً مطابقاً للواقع ..

والقضايا اليقينية تنقسم منطقياً إلى ضروريات ونظريات ..

(١) أساس البلاغة للإمام الزنجشى ص ٤٧٦ ط دار الفكر للطباعة.

والضروري - وقد يسمى البديهي - : ما لا يتوقف حصوله في
الذهن على كسب ونظر واستدلال ..

والنظري : هو الذي يحتاج إلى كسب ونظر واستدلال ..

ومن القضايا الضرورية أو البديهية - الفطريات والأوليات ..

والفطريات : هي القضايا التي يحكم فيها العقل بمجرد تصور الطرفين
بواسطة لا تعيب عن الذهن ، وتسمى قضايا قياساتها معها ، مثل : الأربعة
زوج .

فإن من تصور الأربعة وتصور الزوجية ترتب في ذهنه قياس في
الحال هو : الأربعة منقسمة إلى متساويين ، وكل ما كان كذلك فهو زوج ،
إذن الأربعة زوج .

والأوليات : هي القضايا التي يحكم العقل بها بمجرد تصور الطرفين
بلا واسطة مثل : الكل أعظم من الجزء ، فإن من تصور الكل وتصور
الجزء حكم عقله بأن الكل أعظم من الجزء دون واسطة ، فالعقل وحده
هو الحاكم هنا (١) ..

وبعض الباحثين يقول :

وجود الله تعالى أمر بدهي لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفياً
أو إثباتاً ، ولا سلباً أو إيجاباً .

إن وجود الله من القضايا المسئلة التي لا توضع في الأوساط البديهية
موضع البحث لأنها فطرية ، وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث

(١) تفسير القواعد المنطقية ، ذ. محمد شمس الدين إبراهيم ص ٢٦٧

إنما هو شخص في إيمانه دخل ، وفي دينه انحراف ، فاختفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبت البشر ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . .

ومن المعروف أن الدين الإسلامي لم ينجى لإثبات وجود الله وإنما جاء لتوحيد الله ، وإذا تصفحت القرآن أو التوراة حتى على وضعها الحالي ، أو الإنجيل حتى في وضعه الراهن ، فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في أي سفر منها مكانة تجعلها هدفاً من الأهداف الدينية ، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية . .

والقرآن الكريم يتحدث عن بدهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة ، يقول سبحانه . « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ، » (١) .

إنهم يقولون إن الخالق هو الله ، مع أنهم مشركون أو منحرفون بوجه من الوجوه في إيمانهم بالله تعالى ، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله أو لتصحيح طريق التوحيد . . أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود فليست من ذلك في قليل ولا في كثير ، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه وهيئته الكاملة على العالم ، ما عظم من أمره ودق منه ، لا تفوت هيئته صغيرة ولا كبيرة ، ولا يخرج عن سلطانه ما دق وما جل ، » (٢) .

(١) سورة لقمان الآية ٢٥ .

(٢) الإسلام والعقل - د . عبد الحليم محمود ص ٩٦ ط دار الكتب الحديثة .

وهذا المعنى بعينه هو ما ذهب إليه أنصار الاتجاه السلقي فهوى شارح الطحاوية ابن أبي العز الهمشقي أن الشرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم ، وأن توحيد الربوبية لم يذهب إلى تقيضه طائفة معروفة من بني آدم^(١) .

ونحن نقول :

إن قضية وجود الله تعالى قضية فطرية بمعنى وضوح الأدلة وكثرة الشواهد واتساع آيات الأنفس والأفاق .. ومتى خلص العقل من شوائب التقليد وعادات البيئة السيئة ورواسب التفكير المنحرف - وصل إلى حقيقة الحقائق « ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير »^(٢) .

ولا يمكن بحال من الأحوال أن نرفض الاستدلال على قضية وجود الله تعالى ، ونصم آذانتنا وأسماعنا عن شبهات المنكرين في كل زمان ومكان ، الذين يرفضون الوجود الإلهي الأعلى .. فاذا تفعل مع ملايين البشر قديماً وحديثاً من الدهريين والملاحدة والشيعيين وأصحاب المذاهب الهدامة ١٤ .

وإذا كان القرآن المجيد قد تحدث عن اعتقاد المشركين بخلق الله تعالى للسماوات والأرض في مثل قوله جل جلاله : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ، فهذا ليس تاماً ، فهو حديث عن جماعة من الوثنيين ، عبدوا الأصنام زلنى إلى الله ، فوقعوا في التناقض حين أقروا الله تعالى بالخلق وتوجهوا لغيره بالعبادة ، فالقرآن يخاطب كل ملة ونحلة بما يدهش اعتقادها .

(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧ ، ٨٥ ط المكتب

الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ

(٢) سورة الحج - الآية ٦٢

وإذا كان القرآن قد تحدث عن اتخذه لله ولداً فهل معنى ذلك أن كل الناس يتخذون لله أولاداً ؟ ١٤

وإذا كان القرآن قد تحدث عن عبدة الكواكب فهل يفهم من ذلك أن كل الناس عبدوا الكواكب ؟ ١٤

وإذا كان القرآن قد تحدث عن رفض النبوة للبشر فهل يعنى ذلك أن كل الناس يرفضون بشرية الأنبياء ؟

إن لكل حديث مجاله ، ولكل اتجاه ما يناسبه ، ولا يجوز أن يخرج الكلام عن سياقه ومراعيه .

لقد أشار القرآن إلى مذاهب منحرفة تعادل في الله بغير علم وتكبر الوجود الإلهي الأقدس ، فقال الله تعالى :

« ألم يأتكم نبيّ الذين من قبلكم ، قوم نوح ، وحاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ١٤ .

قالوا إن أتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا مما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، (١) .

ففي هذا النص الكريم تأكيد أن أمما كثيرة رفضت دعوة الأنبياء وشكروا في وجود الله تعالى وأعلنوا رأيهم ذلك . وواجههم الأنبياء بوضوح الأدلة ولقتوا عقولهم إلى آيات الانفس والآفاق الهائلة

على حتمية وجود الله تعالى وربوبيته للكون والكائنات واستحقاقه
العبادة .

وحكى القرآن المجيد مقالة فرعون :

وقال : فن ربكما يا موسى ؟

قال : ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال : فما بال القرون الأولى ؟

قال : علمها عند ربى فى كتاب ، لا يضل ربى ولا ينسى ، الذى جعل
لكم الأرض مهديا وسلك لكم فيها سبلا، وأنزل من السماء ماء، فأخرجنا به
أزواجا من نبات شتى . (١)

ويعلق الإمام الرازى على هذه المحاوراة قائلا :

إن فرعون كان شديد القوة، عظيم الغلبة، كثير العسكر ، ثم إن
موسى عليه السلام لما دعاه إلى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والإيذاء
بل خرج معه فى المناظرة لما أنه لو شرع أولا فى الإيذاء لنسب إلى الجهل
والسفاهة فاستنكف من ذلك ، وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على
أن السفاهة من غير الحججة شئ ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله
وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الإسلام والعلم ؟

ثم إن فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك
السؤال واشتغل بإقامة الدلالة على وجود الصانع ، وذلك يدل
على فساد التقليد ، ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون
نستفيد معرفة الإله من قول الرسول ، لأن موسى عليه السلام اعترف
هنا بأن معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول ،

وتدلل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة، (١).

وحكى القرآن مقالة الدهريين الذين ينكرون وجود الله تعالى ، ويذهبون إلى المقالة المنكرة : ما هي إلا بطون تدفع وأرض تبيع ، هكذا كان في الأول وهكذا يكون في الآخر ، بلا إله خالق وبلا موعده منتظر للحساب والجواب .

قال الله تعالى : « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، (٢) .

وقد جمع القرآن في آية واحدة مناهج الاستدلال كلها حول هذه القضية الكبرى فقال :

« أم خلقوا من غير شيء ؟

أم هم الخالقون ؟

أم خلقوا السموات والأرض ؟

بل لا يوقنون ، (٣) .

فليس يعقل أن يوجد الإنسان بلا خالق ، فظاهر الإبداع فيه متناهية الدقة ، تنطق بقوة الحجة بأن الإنسان مخلوق .

(١) التفسير الكبير ج ٢٢ ص ٦٢

(٢) سورة الجاثية — الآية ٢٤ : ٢٦

(٣) سورة الطور — الآية ٣٥ : ٣٦

وحيث إن الإنسان مخلوق فليس يعقل أن يوجد مصادفة أو أن يخلق نفسه ، فكلا الاحتمالين مرفوض عقلا ، فالمصادفة لا تخلق نظاما وإبداعا ، ولا يتقدم الإنسان نفسه وإلا كان موجودا معدوما في لحظة واحدة وهذا تناقض مستحيل .

فإذا انتقلنا إلى ما حول الإنسان من سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وكائنات لا تحصى ولا تعد ، سبقت وجود الإنسان ، وتبقى بعد زواله ، ولا يستطيع تعديل نوااميسها بل لا يستطيع الإحاطة بها .. فالنتيجة الحتمية هي أن الله موجود ، وخالق الكون والكائنات ، ومدير الأمور كلها ، وله السلطان المطلق .

إن المجال العقلي في النظر إلى الكون سمائه وأرضه ، حيوانه وطيوره ، بره وبحره — كفيل بقيادة البشر حتى يتبين لهم أنه الحق ، ، وجدير بإظهار حقيقة الحقائق :

« ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير » (١) .

وحينا ستل رائد الفضاء السوفيتي (جاجارين) عما شاهده في رحلته الأولى حول الأرض قال :

لقد شاهدت الأجرام السماوية والكواكب تدور في نظام دقيق كأن قوة عليا تمسك بها وتبين عليها .

ذلك هو الشعور القطري الذي عبر عنه القرآن المجيد بقوله :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفورا » (٢) .

(٢) سورة فاطر الآية ٤١

(١) سورة الحج الآية ٦٢

وماكاد (جاجارين) يصرح بذلك حتى استدناه (خروشوف) رئيس الوزراء السوفيتي، وذكره بشيوعيته فكيف ينطق بما يفهم منه الإيمان بالله ؟ :

فلم يلبك أن أعلن أنه بحث عن الله في كل مكان في السماء فلم يجده !!
وقد زار القاهرة خلال شهر يناير سنة ١٩٧٥ رائد الفضاء الأمريكي (جيمس أروين) قائد رحلة أبولو ١٥ التي استغرقت ثلاثة عشر يوما من ٢٦ يوليو إلى ٧ أغسطس سنة ١٩٧١، وقضى منها حوالي عشرين ساعة على سطح القمر في سيارة خاصة .

وفي حوار صحفي معه نشر في صحيفة أخبار اليوم (١٩٧٥/١/١١) .
قال :

لقد أدى نزولي على سطح القمر إلى زيادة إيماني بالله ، وزادت العقيدة الدينية عمقا في نفسي ..

فقبل له :

ولكن جاجارين قال إنه بحث عن الله في السماء فلم يجده !!

فقال أروين :

أنا لا أعرف إذا كان جاجارين قد صرح بذلك أم لا ، ولكني أحب أن أوضح أن الإنسان لا يمكن أن يرى الله بينه كما يرى سائر الكائنات، وأنا أيضا لم أر الله في رحلتي من الأرض إلى القمر .. ولكني شعرت به وازدادت إيماني بوجوده، وبقدرته، وبقوته ..

فهذه الكواكب والنجوم التي تسبح في الفضاء اللانهائي بنظام رائع ، وبديع ، ومحكم، لا يمكن أن تكون قد وجدت تلقائيا أو بمحض الصدفة

ولكن لا بد من وجود قوة خارقة لا يبلغ مداها عقل الإنسان هي التي تتولى تنظيم حركة الكون وحركة الكواكب والنجوم في الفضاء .
وهذه هي القدرة الإلهية ۱۱

حديث الفطرة :

لقد أمرنا الله تعالى أن نحافظ على فطرة التوحيد ، والاعتصام بشريعة الحق ، ونخضع ربة الجاهلية التي تعمل على تغيير معالم الفطرة ، فقال -
جل شأنه :

« فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حوب بما لديهم فرحون ، » ۱۱ .

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى :

« إنى خلقت عبادة حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم .
وحرمت عليهم ما أحللت لهم . »

ونحن نؤمن بالفطرة على المستوى الجمعي وعلى المستوى الفردي .
فالفطرة على المستوى الجمعي تعنى أن البشرية جمعا بدأت عقيدتها بالتوحيد الخالص لله تعالى انطلاقا من أولية آدم عليه السلام وهبوطه إلى الأرض طامرا مجتبي .

والفطرة على المستوى الفردي تعنى قبول الإنسان للحق وإيمانه بالله .

وريقينه بأن للكون خالقا مبدا حكيما لا شريك له، طالما كان الفرد سليما
من آفات التقليد والهوى والمادة الجاهلية ..

وفي ذلك يقول الرسول ﷺ - كما في الصحيح - :

« ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه
أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدناه ؟ » .
وفي رواية : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه
أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة ، هل ترى فيها من جدناه ، (١) .

وإذا استطلعنا آراء العلماء في شرح هذا الحديث الشريف نجد الإمام
ابن حجر العسقلاني يقول :

وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام ، قال ابن عبد البر : وهو
المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد
يقوله تعالى « فطرة الله التي فطر الناس عليها ، الإسلام .. »

ثم نقل ابن حجر أن المراد بالفطرة تمكن الناس من الهدى في أصل
الجبلة والتهيؤ لقبول الدين ، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لومها ولم
يفارقها إلى غيرها ، لأن حسن العين ثابت في النفوس ، وإنما يعدل عنه
لآفة من الآفات البشرية كالتقليد ..

وإلى هذا مال القرطبي في المقدم فقال :

المعنى أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق ، كما خلق أعينهم

(١) تلجج - يضم أوله وسكون النون وفتح التاء بعدها جيم -
على ما لم يسم فاعله (مبنى للجهول) والجدعاء المقطوعة الأذن ، والمراد
أن البهيمة توله سليمة ثم يبدعها الناس بعد ذلك .

وأما هم قابلة للريثات والمسموعات، فادامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق . .

وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث حيث قال عليه الصلاة والسلام : « كما تلتج البهيمة ، يعني أن البهيمة تلد الولد كامل الحلقة ، فلو ترك كذلك كان بريئا من العيب لكنهم تصرفوا فيه بقطع أذنه ، مثلا نخرج عن الأصل ، وهو تشبيهه واقع ووجهه واضح .

ثم نقل ابن حجر توضيحا لمعنى الحديث عن ابن القيم فقال :

ليس المراد بقوله « يولد على الفطرة » ، أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين ، لأن الله تعالى يقول « وانه أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » (١) .

ولكن المراد أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبه ، فففس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة .

وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك لأنه لا يتغير بتهود الأبوين مثلا بحيث يخرجان الفطرة عن القبول .

وإنما المراد أن كل مولود يولد على إقراره بالربوبية ، فلو خلى وعدم المعارض لم يعد له عن ذلك إلى غيره .

كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من ارتضاع اللبن حتى يصرفه عنه الصارف ، ومن ثم شبهت الفطرة باللبن بل كانت إياه في تأويل الرؤيا .. (٢) .

(١) سورة النحل - الآية ٧٨

(٢) فتح الباري - شرح صحيح البخاري - ٢ ص ٢٤٩

ومن هذا يتبين أن ما يجري على الفرد هو ما يجري على النوع، ففطرة الفرد تنادى بالتوحيد .

والإنسان في حالة الضيق والاضطرار واليأس يجد نفسه مدفوعاً دفعاً قوياً إلى اللجوء إلى الله وحده واستمداد العون منه، ومناجاته رجاء كشف الضر وإزالة العمة والإنقاذ من المحنة كما قال تعالى : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدهونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لسكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كorb ثم أتم تشركون، (١) .

وإن الإنسانية في بدء أمرها لم تلهأ في غيبة الوحي الإلهي ولا بعيداً عن منهج الرسل .

دعوة الأنبياء

بعث الله الأنبياء ليقوموا بالتوحيد، وينشروا لواء الوحدانية،
ويحققوا العلاقة الصحيحة بين الخلق والخالق..

قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا
الطغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا
في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، » (١) .

وكانت كلمة التوحيد هي كلمة الوحي الأولى التي جاهد عليها جميع
الأنبياء .. قال جل شأنه :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا
فاعبدون ، » (٢) .

ولهذا التقى رسل الله وأنبيأؤه على نداء واحد ، توجهوا به إلى
أقوامهم وهو : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، »
قاله نوح عليه السلام :

« لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره ، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، » (٣) .

وقال هود عليه السلام :

« وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من غيره
أفلا تتقون ، » (٤) .

(١) سورة النحل - الآية ٣٦

(٢) سورة الأنبياء - الآية ٢٥

(٣) سورة الأعراف ٥٩ ، ٦٥

وقاله صالح عليه السلام :

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم .. » (١) .

وقاله إبراهيم عليه السلام :

« وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، » (٢) .

وقاله شعيب عليه السلام :

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ، قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم ، » (٣) .

وقاله المسيح عليه السلام في الدنيا :

« وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ، » (٤) .

وسيقوله المسيح مرة أخرى أمام الأشهاد في القيامة :

« ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم ، » (٥) .

وهكذا كل نبي ..

(١) سورة الأعراف ٧٣

(٢) سورة العنكبوت — الآية ١٦

(٣) سورة الأعراف — الآية ٨٥

(٤) سورة المائدة — الآية ٧٢

(٥) سورة المائدة — ١١٧

وقدم الأنبياء لأقوامهم مناهج الأدلة وقواطع البراهين، ومجادلهم
بالتى هي أحسن، والزموم الحجة في كل زمان ومكان . .

لقد بناق نوح عليه السلام لقومه آيات الانفس والآفاق، ولفقت
عقولهم إلى إتقان الصنع وإبداع الخلق في السموات والأرض، وذكرهم
بمعم الله التى تتوالى عليهم بالليل والنهار، لا يملكون فيها من قطمير،
وليس لهم فيها من شرك، ولا قدرة لبشر عليها . .

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام:

« ما لكم لا ترجون لله وقارا، وقد خلقكم أطوارا ١٤١
المرثوا كيف خلق الله سبع سموات طباقا، وجعل القمر فيهن نورا،
وجعل الشمس سراجا ١٤٢

واقه أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . .
واقه جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا (١) .

• • •

وشارك إبراهيم عليه السلام في مجادلات شتى ومجاورات عدة، مع
الملك الطاغية، ومع أبيه، ومع عبدة الأصنام، ومع عبدة الكواكب . .
وحدد لكل فريق منهاجا للاستدلال، ولكل قوم طريقة في البحث،
كى يصل بهم إلى فطرة الحق ونقاء التوحيد . .

ونقرأ على سبيل المثال:

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من

الموقنين ، فلما جن عليه الليل وأى كوكبا ، قال هذا ربي ، فلما أفل قال
لأحب الأفلين .

فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي .
لا كون من القوم الضالين .

فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم
إني بريء مما تشركون . .

إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيقا ، وما أنا
من المشركين ، (١) .

لقد اصطفى الله إبراهيم وعلمه ، وآتاه الحجة ، وزاده حكمة وعمق
بيان ويقين استدلال . .

واتجه إبراهيم إلى الصابئة الذين يعبدون الكواكب من دون الله ،
وقنله إليهم وشرح لهم أحوالها التي تتنافى مع الألوهية وتنتأى بها عن
الربوبية . .

وانتهى بهم إلى ضرورة اليقين بحقيقة الحقائق والتسليم لله فاطر الكون
ومبدع السموات ، وما من الأسباب والمسببات ، والميمن على كل شيء . .

توحيد القرآن

إن الجانب الإلهي في الإسلام تحدده كلمات قصار ، هي قة الإيجاز
وقوة التصوير ، في قوله تعالى :

« قل هو الله أحد .

الله الصمد .

لم يلد ولم يولد .

ولم يكن له كفواً أحد . » .

وقد جاء في أسباب النزول أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ :
أنسب لنا وبك ، فأنزل الله تعالى هذه السورة .

وثبت في صحيح الحديث أنها تعدل تلك القرآن ، ففي صحيح
البخارى أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ « قل هو الله أحد ، يرددتها ، فلما
أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالمها (١) فقال
النبي ﷺ : والله نفسي بيده إنها لتعدل تلك القرآن .

وفي رواية أخرى : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : أيجو أحدكم أن
يقرأ تلك القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك
يارسول الله ؟ فقال : « قل هو الله أحد ، تلك القرآن .

وفي توجيه أن هذه السورة تعدل تلك القرآن أقوال للعلماء منها :

١ - هي تلك القرآن باعتبار المعاني القرآنية ، فالقرآن أحكام

(١) بعدما قلية .

وأخبار وتوحيد، وقد اشتملت هذه السورة على القسم الثالث وهو التوحيد .

٢ - إن معرفة الله تعالى قائمة على معرفة الذات ومعرفة الصفات ومعرفة الأفعال، وهذه السورة بينت معرفة الذات المقدسة بجلالها وكاملها، فالأحدية تشعر بوجود خاص لا يشاركه فيه غيره، والصدية تشعر بدميغ خصال السكالم لأنه الذى انتهى إليه السؤدد فكان الملجأ والمنجى منه وإليه .

٣ - إن ثواب قراءة سورة الإخلاص يعدل ثواب من قرأ تلك القرآن .

٤ - ادعى بعضهم أن قوله : « تعدل تلك القرآن » يختص بصاحب الواقعة لأنها لما ردها فى ليلته كان كمن قرأ تلك القرآن بغير ترديد . ولعل الرجل الذى جرى له ذلك لم يكن يحفظ غيرها فلذلك استقل عمله ، فقال له الشارع ذلك ترغيباً له فى عمل الخير وإن قل (١) .

ولهذه السورة خاصة أخرى جلية ، فمن قرأها وداوم عليها وتعلق بها وعقل معناها وعمل بمقتضاها قاده ذلك إلى الجنة وحظى بالرضوان الأكبر ، وقد أخرج البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ بعث رجلا على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بقل هو الله أحد ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : سلوه لآى شىء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال النبى ﷺ : أخبروه أن الله تعالى يحب .

(١) راجع هذه الآراء فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١

وفي موقف آخر كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة بما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد، حتى يفرغ منها ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكله أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجوزك حتى تقرأ بالآخرى، فإذا أن تقرأ بها وإما أن تقرأ بالآخرى.

فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال: يا فلان ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك؟ وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟

قال: إني أحبها، قال عليه الصلاة والسلام: «حبك إياها أدخلك الجنة».

والفاظ السورة الكريمة تحدد الجانب الإلهي تحديداً واضحاً، فاقه أحد، ونفط الأحد في الإثبات لا يطلق إلا على الله هو وجل لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

وقد ذكر الإمام الرازي بحثاً قيباً حوله التعبير الشريف «الله أحد»، فقال: إن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية، أما الإضافية: فكقولنا عالم، قادر، مريد، خلاق، وأما السلبية فكقولنا: ليس بجسم ولا بجمهر ولا بعرض.

والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات، وثانياً على النوع الثاني منها، وقولنا «الله» يدل على مجامع الصفات الإضافية، وقولنا «أحد» يدل على مجامع الصفات السلبية، فكان قولنا «الله أحد» تاماً في إعادة العرفان الذي يليق بالعقول البشرية.

وإنما قلنا إن لفظ « الله » يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة ، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع ، والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات ، من الكليات والجوئيات وهذه مجامع الصفات الإضافية .

وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحادية وذلك لأن المراد من الأحادية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة ، منزهة عن أنحاء التركيب وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفترقة إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره . فكل مركب فهو مفترق إلى غيره ، وكل مفترق إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته .

فالإله الذي هو مبدأ جميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً ، فهو في نفسه فرد أحد ، وإذا ثبتت الأحادية وجب أن لا يكون متحيزاً فإن يمينه مغاير ليساره وكل ما كان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً .

وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهات ، ويجب أن لا يكون حالاً في شيء ، لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلاً لشيء لأنه مع حاله لا يكون أحداً .

وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً ألبتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة .

وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً ، إذ لو فرض موجودان واجبا الوجود لاشتركا في الوجوب ولتقايروا في التعيين ،

وما به المشاركة غير ما به الممايزة ، فكل واحد منها مركب ، ثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً ، (١) .

وقوله تعالى : « الله الصمد » يراد به المقصود في الحوامج ، المستغنى عن العالمين ، وهو يلتقي في المعنى مع الآية الكريمة : « يا أيها الناس أتمموا الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » ، (٢) .

، وهذا المعنى يوضحه الحديث الشريف القدسي : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .

يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعته فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي إنكم تبلغوا ضري فتضروني وإن تبلغوا نفي فتنفعوني . . .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . . .

(١) التفسير الكبير للإمام الرازي ج ٣٢ ص ١٨٠ ط دار الفكر .

(٢) سورة فاطر الآية ١٦ .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك عما عندى إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر . .

يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيتها لكم ثم أوفيتكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، رواه مسلم .

وقوله تعالى : « لم يلد ولم يولد » إشارة إلى أنه تعالى أوله بلا ابتداء وآخره بلا انتهاء فهو سبحانه الأول الأبدى ، وقد ادعى المشركون أن الملائكة بنات الله ، وادعى اليهود أن عزيراً ابن الله ، وادعى النصارى أن المسيح ابن الله ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ، فالآية الكريمة تنهى الولدية والمولودية وتؤكد الأحدية الصمدية .

وقوله تعالى : « ولم يكن له كفواً أحد » تثبت لعقيدة مفارقة الله لسائر الكائنات وعلوه عليها ، وأن كل ما طرأ يالك فاقه بخلاف ذلك . .

وبهذه السورة الكريمة وبهذا الوضوح الجلى فى العقيدة الإسلامية تنهاوى كافة العقائد الوثنية وأباطيل أهل الكتاب وأوهام الفلاسفة . .

الدين الخالص

إن عالم اليوم الذى تصارعت فيه القوى والمذاهب ووصل إلى درجة التشبع المادى الرخيص .. أصبح يتلهف على عقيدة تؤازر العقل الراشد ، وتهب السعادة للنفس الإنسانية وتتسامى بعواطف الإنسان وخرائزه إلى آفاق الملا الأعلى .

ولن تكون تلك العقيدة لإعقيدة الإسلام الذى ختم الله به الرسالات فهو الدين القيم ، وهو أمل الإنسانية المرتقب فى اليوم ، وفى الغد بعده ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

المراد بالدين الخالص :

فالعقيدة الإسلامية هي الدين الخالص الذى لا يعرف معبوداً غير الله الواحد الأحد ، له وحده العبادة ، وبه وحده الاستعانة ، وعليه وحده التوكل ، وإليه وحده المناجاة والتضرع .

قال الله تعالى : **دوما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ، (١) .

والمعقيدة الإسلامية لا تعرف تشبيهاً أو تجسيمياً للألوهية بل كل ما طرأ يبالك فاقه بخلاف ذلك .. قال سبحانه : **ليس كمثل شيء وهو السميع البصير** ، (٢) .

والمعقيدة الإسلامية لا تعرف حلولاً أو اتحاداً ، فالكون والكائنات جميعاً مربوبة لله سبحانه ، وواقعة تحت قهره وسلطانه وهيمنته ..

(١) سورة البينة آية ٥ .

(٢) د الشورى آية ١١ .

قال جل شأنه : «وقه يسجد من في السموات والارض طوعاً وكرهاً ، وظلالهم بالغدو والآصال» (١).

وقال سبحانه وتعالى :

« ان يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً » (٢).

والعقيدة الإسلامية لا تعرف وساطة أو كهانة ، وقد نص القرآن على قوم بدلوا عقيدة التوحيد كفرأ فقال :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (٣).

وفي حديث رواه أحمد والترمذي وابن جرير أن عدى بن حاتم الطائي - وكان قد تنصر في الجاهلية - دخل على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فقال عدى : إنهم لم يعبدوه .

فقال الرسول ﷺ : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوه فذلك عبادتهم إياهم .

(١) سورة الرعد الآية ١٥ .

(٢) سورة النساء - الآية ١٧٢ : ١٧٣ .

(٣) « التوبة - الآية ٣١ .

مفهوم العبادة :

إن المسلم يقرأ كل يوم سورة الفاتحة سبع عشرة مرة على الأقل .
وفيها قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » ، وفي تقديم الضمير
« إياك » ، على الفعلين ما يدل على الاختصاص .

فالعبادة هي منتهى الخضوع والتذلل ..

والاستعانة هي طلب العون ممن يقدر ويملك ..

فأنت وحدك مالك الملك والملكوت ، ذو القوة والجبروت ..

فعليه وحده التوكل وإليه وحده إسناد عظام الأمور ودقاتها ، قال

تعالى :

« وتوكل على العزيز الرحيم » (١)

« وتوكل على الحي الذي لا يموت » (٢)

« وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً » (٣)

وإلى الله وحده المناجاة والتضرع ، فيكشف الضر ، ويوجب المنظر

ويرزق من يشاء بغير حساب .. قال تعالى :

« وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ،

فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » (٤) .

(١) سورة الشعراء الآية ٢١٧

(٢) الفرقان الآية ٥٨

(٣) الاحزاب الآية ٣

(٤) البقرة الآية ١٨٦

والله وحده الحب كله في أسنى معانيه وأجل مقاماته وأعظم درجاته ،
قال تعالى : « والذين آمنوا أشد حبا لله ، » (١) .

ومن الله وحده الخشية والرهبة . . . قال تعالى : « الذين
يلتقون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وكفى
بآله حسيبا ، » (٢) .

المعاني البشرية :

إن الحب والخشية والدعاء والاستعانة عندما تتوجه بها إلى الله تعالى
فهى اليقين الكامل بأن الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، ذو الجلال
والإكرام ..

ولا حرج شرعاً في استخدام هذه الألفاظ في المجال البشرى ،
فنحن نحب أهلينا وأموالنا ، ونخشى أعداءنا ، وندعو الكبراء فينا ،
ونستعين بالأقوياء ، ونطلب النجدة عن يستطيع نصرتنا ..

لكن هذا الاستخدام البشرى إنما هو في إطار الضعف الإنسانى
والقدرة البشرية المنوحة من الخالق المبدع الحكيم ، ومن باب التعاون
على البر والتقوى ..

ولمنا ندعى لأحد من البشر هيمنة على الكون أو سلطاناً على الكائنات ،
أو علواً على الخلق ، أو تدبيراً لللكوت . . .

فاللهى عنه شرعاً هو حب الناس كحب الله ، أو خشية الناس كخشية

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥

(٢) سورة الاحزاب الآية ٢٩

الله ، أو دعاء الناس كدعاء الله . . وهما ما أكلفته النصوص الشرعية . . قال تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله » (١) .

وقال جل شأنه : « فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » (٢) .

فلكل درجة ولكل حدوده . .

وما كان لله فهو أعز وأكرم وأجل . .

نماذج شركية :

وانطلاقاً من هذه الخاصة العقيدية نهى الإسلام أشد النهي عن أمور تتناقى مع الدين الخالص ، وتشوب العقيدة الصحيحة وقد تصل بها إلى الشرك الخالص . . قتهى الإسلام عن اتخاذ القبور مساجد ، ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة وأنها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله . .

وحرم الإسلام أكل ما ذبح لغير الله ، فقال تعالى : « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق » (٣) .

وحذر الإسلام من الاعتقاد الخاطيء في السحر والكهانة والتنجيم

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥

(٢) سورة النساء الآية ٧٧

(٣) سورة الأنعام الآية ١٢١

والتطير، ففي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الوحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وفي الصحيح أيضا:

«من أتى عراقا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» .

آفاق عقيدة التوحيد

١ - أفق الاسم :

• « لا إله إلا الله » هي كلمة التوحيد الخالصة لله تعالى ، فلا معبود بحق سوى الله ، فهو سبحانه المستحق وحده للعبادة ، وهو وحده المستغنى عما سواه ، والجميع في حاجة إلى الله خلقاً ومدداً ومهداية ..

قال الله تعالى : « يا أيها الناس أتمموا الفقراء إلى الله والله هو الغني الجيد » (١) .

• « لا إله إلا الله » هي كلمة الإخلاص ، لأن تعدد الشركاء والآلهة المزعومة يورث شتات الفكر وضياع الوعي ونفاق الكلمة والسلوك قال الله تعالى : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون » (٢) .

• « لا إله إلا الله » هي كلمة التقوى ، فلا وقاية من عذاب الله وسخطه إلا بالتوحيد ، ولا وقاية من الانحراف والخطيئة إلا بالتوحيد .

فمن أيقن بأن الله واحد لا شريك له ، أسلم وانقاد له فالتزم الأمر واجتنب النهى وحافظ على الشريعة ..

وقد جعلها الله وساماً رفيعاً لأصحاب بيعة الرضوان فقال : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق

(١) سورة فاطر الآية ١٥

(٢) الزمر الآية ٢٩

بها وأهلها، وكان الله بكل شيء عليماً، (١).

• لا إله إلا الله، هي دعوة الحق، فعندما يؤمن الإنسان بعقيدة التوحيد إيماناً راسخاً يسره أن يدعو الناس إليها ويعرفهم بها ويأخذ بأيديهم إلى رحابها، لأن التوحيد هو أصل كل خير وأساس كل سلوك رشيد، فالمنطلق لحياة كريمة طيبة في الدنيا والآخرة هو توحيد الله تعالى، والشهادة له سبحانه بالجلال والكمال، والاستقامة على شرع الله عز وجل ..

قال تعالى: «له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال»، (٢).

• لا إله إلا الله، هي الكلمة الطيبة التي تثمر كلمات طيبات تضيء جوانب الحياة بأسرها، فإما من كلمة خير وبر ومعروف إلا ومنطلقها كلمة التوحيد، وفي ضية هذه الكلمة الطيبة تتوالى الشرور وتوارد المفاسد ويضيع الأمل وتصبح الحياة مجرداء قاحلة ..

قال تعالى: «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار»، (٣).

• لا إله إلا الله، هي العروة الوثقى، فحق المسلم التوحيد في

(١) سورة الفتح الآية ١٨

(٢) الزعد الآية ١٤

(٣) إبراهيم الآية ٢٤ : ٢٦

العقيدة، وأثمر في قلبه الإخلاص النقي، ودفعه إلى التقوى، وعاشق
بالكلمة الطيبة من أجل دعوة الحق - فقد استمسك بالعروة الوثقى
وتمكن من ناصية السعادة والفوز المبين ..

قال الله تعالى: «ومن يسلم وجهه إلى الله فهو حسن فقد استمسك بالعروة
الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور» (١).

• لا إله إلا الله، هي مفتاح الجنة ..

قال تعالى: «إِنَّ مِنْ يَشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ
وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» (٢).

فليس هناك أظلم ممن أخلق عبده دون النور، وطمس بصيرته دون
الوحي الإلهي، وتمرد على الشرع الشريف ..

٢ - أفق العلم :

إن عقيدة التوحيد تنشأ عن العلم بآيات الانفس والآفاق، والتعرف
على ملكوت السموات والأرض، والتأمل في صنع الله الذي أتقن
كل شيء ..

ولمذا قال الله تعالى: «فاعلم أنه لا إله إلا الله» (٣).

فالإيمان مصاحب للعقل، ولا دين لمن لا عقل له، ولا عقل لمن
لا دين له ..

وقد حرص القرآن المجيد على تأكيد أهمية العلم ودوره في بناء العقيدة

(١) سورة لقمان الآية ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية ٧٢

(٣) سورة محمد الآية ١٩

الصحيحة ، وكان الشعار المرفوع دائماً في مواقف الجدل مع خصوم
اللعنة هو قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (١١) .

« قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا » (١٢) .

وكان القرآن كتاب الكون المقروء وكان الكون قرآن الله المنظور،
ولنتقراً : « قل إن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ١٤

قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟

سيقولون لله قل أفلا تتقون ١٤

قل من يده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم
تعلمون ؟

سيقولون لله ، قل فأنى تسحرون ١٤

بل أتيناكم بالحق وانهم لكاذبون

ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لنذهب كل إله بما خلق
ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ، (١٣) .

إن عقيدة التوحيد تدفع المسلم دفعا قويا إلى طلب العلم والبحث في
نواميس الكائنات ، والتعرف على خصائص الأشياء والانتفاع بالملكات
التي منحها الله لنا ..

وقد أعلى الله منزلة العلماء فقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة

(١) سورة النمل الآية ٦٤

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٨

(٣) سورة المؤمنون الآية ٨٤ : ٩١

فقال: شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم (١١) .

وحص العلماء بالخشية فقال: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (١٢) فعلى قدر معرفة الإنسان بربه تكون خشية منه سبحانه ..

ومن هنا كان طلب العلم فريضة وكان طالب العلم معانا من الله ، قال رسول الله ﷺ : « من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع .. » .

٣ - أفق الوجدان :

خلق الإنسان في كبد ، وقدم إلى الحياة وسط متاعب ومشاكل وهموم تلازمه ، فيضيق صدر الإنسان ويعتريه القلق ..

والحل هو عقيدة التوحيد والإيمان بالله عز وجل ، فهو الأمل في هذه الحياة ، وهو الضياء لمسيرة الإنسان ..

إن الحياة قائمة على المتقابلات من صحة أو مرض ، ومن غنى أو فقر ، ومن أولاد أو عقم ، ومن شباب أو كهولة .. الخ وليس هناك من ناموس يحكم هذه المتقابلات ويهب الناس السكينة حيالها إلا الإيمان بالله ، ذلك أن الحياة في منطق الإيمان مبنية على قانون عام هو الابتلاء والامتحان .. قال الله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » (١٣) .

وشأن المؤمن أن يكون شاكرا عند النعمة والمطاء ، صابرا في مواقع

(١) سورة آل عمران الآية ١٨

(٢) سورة فاطر الآية ٢٨

(٣) سورة الأنبياء الآية ٣٥

القبضاء، قال تعالى : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه » (١) .

وبذلك يعيش المؤمن في هدوء وسكينة، ملتمح الصدر قروياً العيين :

وفي غيبة عقيدة التوحيد يتكبر الإنسان عند النعمة ويطنى بها ويفسد في الأرض ، وعند المصيبة يجرع ويقنط ويأس وتنهـار حياته ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، إن أصابه سرأ فشكر كان خيراً له، وإن أصابه ضراء نصبر كان خيراً ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . »

وفي مواقف كثيرة عندما تنقطع الأسباب ويظلم الطريق يابجأ الإنسان إلى ربه وجاء كشف النعمة فإذا تداركته وحة الله ونجا - عاود الإنسان انصرافه ونسى نعم الله عليه ..

وفي تصوير هذه الحال العجيبة يقول الله تعالى : « وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه » (٢) .

أى أنه في حال شدة البحر واشراف المرء على الغرق ينسى جميع الشركاء ولا يعتقد إلا في قدرة الله جل جلاله ، فيحقق الله رجاءه وينقذه بما فيه من أهوال ، ولكن الإنسان تلبيه النعمة :

« فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً . »

وهل نسي أن إله البحر هو إله البر ، وأن صاحب الهيمنة المطلقة هو الله وحده ؟ [أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً] .

(١) سورة التغابن الآية ١١

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٧

ثم أليس من الممكن أن تعود الشدة مرة أخرى ويقف الإنسان نفس الموقف السابق يحيط به الموج من كل مكان؟ [أم أمتم أن يعيدكم فيه قارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا] .

إن العاقل يتعرف إلى الله في الرخاء ليعرفه في الشدة ويظل وفيا لمنهج الله في السراء والضراء . . .

٤ - أفق الاجتماع :

إن عقيدة التوحيد تعمق في قلب الإنسان لتغير الحياة بأسرها ، ولتقدم للناس كرائم الأخلاق ، وعحامد السير ، وفضائل الأعمال ، وطيبات السلوك ..

ويتحقق ذلك من جوانب عدة ..

يتحقق من خلال المراقبة الذاتية التي تجعل المؤمن يسعى لأن يراه الله حيث أمره ويفقده حيث نهاه، قال الله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو بهم » أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ، " .

ويتحقق من خلال التراحم والتواصل بين الأجيال وفتات المجتمع .. كما قال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » " .

(١) سورة المجادلة الآية ٧

(٢) سورة الحشر الآية ١٠

ويتحقق من خلال الإيثار والتضحية، فيحب المؤمن لأخيه ما يجب لنفسه بل قد يقدمه على نفسه.. قال الله تعالى : «والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» (١) .

ويتحقق من خلال العمل المخلص الدموي، بحيث يؤدي المؤمن عمله بإتقان .. قال الله تعالى :

«وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» (٢).

ويتحقق من خلال الالتزام بمنهج الله الذي يهدي للتي هي أقوم ، فإن الإنسان صنعة الله، والله أعلم بما يصلحه « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » (٣) ..

وما ساد ظلم ولا ضاع حق ولا انتهكت حرمة إلا في غيبة منهج الله، حيث يوجد الإيمان توجد الأمانة والأمن .. قال تعالى : «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» (٤) .

(١) سورة الحشر الآية ٩

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٥

(٣) سورة الملك الآية ١٤

(٤) سورة الأنعام الآية ٨٢

• - أقق الذكر :

إن عقيدة التوحيد بعمقها التاريخي وآفاقها العلمية والنفسية والاجتماعية
تمتغلغل في الحياة بأجمعها ..

وهذه الأهمية القصوى تحتم أن يظل المؤمن مرددا بقلبه ولسانه « لا
إله إلا الله ، حتى لا يكون من الغافلين ..

إن الحياة حلوة بذكر الله ، سعيدة بمنهج الله ، ممتدة باسم الله ، وهذا
المعنى يجعل المؤمن في قمة الوعي والعقل .. قال الله تعالى : « إن في خلق
السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب ، الذين
يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق
السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ،
ربنا إنك من تدخل النار فقد أخرجتته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا
منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاقفر لنا ذنوبنا وكفر
عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا
يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، (١) » .

إن هذا الذكر هو دعوة تأمل في خلق الله ، ودعاء إلى الرب الكريم ،
وجهاد من أجل الحق ، ورجاء في محاسن الدنيا ومحاسن الآخرة ، فقد وعد
الله رسله والمؤمنين النصر والتكفين في الدنيا والفردوس الأعلى
في الآخرة .

والمراد بالذكر قياماً وقعوداً وعلى الجنوب هو الاستمرار والموام
على كل الأحوال ، وفي كافة المواقف ، وليس المراد اقتصار قيام وقعود ..
وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن شرائع

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠ : ١٩٤ .

الإسلام كثرت على ، فباب من الخير جامع ، فقال : لا يزال لسانك رطبا
بذكر الله .

إن الذكر مفتاح الخير للسلوك الإنساني ، فليس يعقل أن إنسانا
يردد بقلبه ولسانه . « لا إله إلا الله » ويعقل معنى كلمة التوحيد هذه ثم هو
يغتتاب أو يمجهد أو يقصر في عمل ، أو يفرط في واجب ، أو يقف موقف
الفاحشة والمنكر ..

وفي ثواب ذكر كلمة التوحيد جاء الحديث الصحيح من قال : لا إله
إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ،
في يوم مائة مرة كانت له عمل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحبت
عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت
أحد أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك ،

إن إنسانا يردد في اليوم كلمة التوحيد مائة مرة هو إنسان قائم
يستمر رحمة الله ، ويسمى لأداء الفرائض ، ويكف عن المحرم ،
ويتخلق بأخلاق الله ..

النَّبَاتُ الْخَاصِصُ

قراءة في كتب العقيدة

- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل
للإمام ابن خزيمة
- المواقف في علم الكلام
لعضد الدين الإيجي
- شرح العقيدة الطحاوية
للشيخ ابن أبي العز الدمشقي
- رسالة التوحيد
للإمام محمد عبده

التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل .

للإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة

المتوفى سنة ٢١١ هـ

- المؤلف وسبب التأليف
- الصفات الخبرية
- كلام الله تعالى
- الرؤية
- الشفاعة
- حكم مرتكب الكبيرة
- ملاحظات

التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل^(١)

المؤلف :

الإمام محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي
النيسابوري . ولد في شهر صفر سنة ٢٢٣ هـ ، وتوفي سنة ٣١١ هـ .

وكان شافعي المذهب ، وله مؤلفات كثيرة ، أهمها كتابه في الحديث
المسمى .. صحيح ابن خزيمة .

سبب التأليف :

يقول المؤلف في مقدمته :

تعالى ربنا عن صفات المحدثين ، وتقدس عن شبه المخلوقين ، وتزه
عن مقالة المدخلين ، وعلا ربنا ، فكان فوق سبع سماواته عاليا ، ثم على
عرشه استوى ، يعلم السر وأخفى ، ويسمع الكلام والنهوى .

ثم يقوله : أما بعد : فقد أتى علينا برهة من الدهر ، وأنا كاره
للاشتغال بتصنيف ما يشوبه شيء من جنس الكلام^(٢) من الكتب وكان
أكثر شغلنا بتصنيف كتب الفقه التي هي خلو من الكلام في الأقدار
الماضية التي قد كفر بها كثير من متعجلي الإسلام ، وفي صفات الله
هز وجل التي قد نقاها ولم يؤمن بها المدخلون ، وفي ذلك من الكتب التي
ليست من كتب الفقه ..

(١) الكتاب راجعه وطلق عليه الدكتور محمد خليل مرام ، وطبعته

مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٨٧ هـ ١٩٦٨ م

(٢) المراد علم الكلام المذموم على عصر المؤلف .

وكنت أحسب أن ما يجري منى بين المناظرين من أهل الأهواء في
جلس الكلام في مجالسنا، ويظهر لأصحابه الذين يحضرون المجالس والمناظرة
من إظهار حقنا على باطل مخالفتنا في المناظرة — كافي عن تصنيف
الكتب على صحة مذهبنا، وبطلان مذاهب القوم، وغنية من الإكتاف
في ذلك ..

فلما حدث في أمرنا ما حدث مما كان الله قد قضاه، وقد كونه بما لا
يعيب لأحد، ولا موئل عما قضى الله كونه في اللوح المحفوظ قد سطره
من حتم قضاءه، فنحن من الظهور ونشر العلم وتعليم مقتبس العلم بعض
ما كان الله قد أودعنا من هذه الصناعة .

كنت أسمع من بعض أحداث طلاب العلم والحديث، ممن لعله كان
يحضر مجالس أهل الزيغ والضلالة من الجهمية المعطلة والقدرية المعتزلة
— ما تخوفت أن يميل بعضهم عن الحق والصواب، من القول بالبهت
والضلال في هذين الجنسيتين من العلم، بإثبات القول بالقضاء السابق والمقادير
النافذة قبل حدوث كسب العباد، والإيمان بجميع صفات الرحمن الخالق
جل وعلا، بما وصف الله به نفسه في محكم تنزيله الذي لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وبما صح وثبت عن نبينا
ﷺ بالأسانيد الثابتة الصحيحة بنقل أهل العدالة موصولا إليه ﷺ ..
فيعلم الناظر في كتابنا هذا عن وفقه الله تعالى لإدراك الحق والصواب،
ومن عليه بالتوفيق لما يجب ويرضى — صحة مذهب أهل الآثار في هذين
الجنسيتين^(١) من العلم، وبطلان مذاهب أهل الأهواء والبدع الذين هم في
ريهم وضلالهم يعمهون ... »

(١) المراد علم القضاء والقدر وعلم التوحيد والصفات :

فالمؤلف يخرج من صمته وسجل مناظراته وآراءه في كتب كي يرجع إليها طلاب العلم ولا تذهب سدى مع الأيام ..

وهو يتم بجانبين من العلم هما القضاء والقدر ، والتوحيد والصفات .

وهو يتم مخالفته بالكفر بسبب آرائهم في هذين العليين ..

ويحدد فرقا بعينها يعدها من أهل الزيغ والضلالة ، هي فرقة الجبهة وفرقة المعتزلة ..

وهو يصنف نفسه في مذهب أهل الآثار في مقابلة مذهب أهل الأهواء ...

الموضوعات

الصفات الخيرية :

بدأ المؤلف كتابه بإثبات النفس لله تعالى معتمداً على مثل قوله تعالى :
« واصطنعتك لنفسى » ، (١) ، وقوله : « كتب وبكم على نفسه الرحمة » ، (٢) .

وقوله رسول الله ﷺ :

« يقول الله أنا مع عبدي حين يذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

ثم ثبت الوجه لله تعالى بمثل قوله جل شأنه : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ، (٣) .

(١) سورة طه ، الآية ٤١

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٥٤

(٣) سورة الرحمن ، الآية ٢٧

وقوله ﷺ: «مثل المجاهد في سبيل الله ابتغاء وجه الله مثل القائم المصلح حتى يرجع المجاهد» .

وناقش المؤلف الخبر الوارد «لا يقولن أحدكم لأحد قبح الله وجهك ووجها أشبه وجهك فإن الله خلق آدم على صورته» والنص الآخر «إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته» .

وساق مجموعة روايات وأكد أن المراد أن وجه للضروب كوجه آدم، ووقف عند الرواية القائمة: «فإن الله خلق آدم على صورة الرحمن» . ورفضها لعلل ثلاث هي:

١ - إن الثوري قد خالف الأعمش في إسناده، فأرسله الثوري ولم يقل عن ابن عمر .

٢ - إن الأعمش مدلس لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت .

٣ - إن حبيب بن أبي ثابت أيضاً مدلس لم يعلم أنه سمعه من عطاء ..

وقال:

إن صح الخبر فعناه عندنا أن إضافة الصورة إلى الرحمن من إضافة الخلق إليه، لأن الخلق يضاف إلى الرحمن، إذ الخلق خلقه، وكذلك الصورة تضاف إلى الرحمن لأن الله صورها، ألم تسمع قوله عز وجل «هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ..» (١١) .

ثم ذكر المؤلف إثبات العين لله تعالى بمثل قوله جلا شأنه «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا» (١٢) وقوله ﷺ «إن الله ليس بأعور» .

(١) سورة لقمان - الآية ١١

(٢) سورة هود الآية ٣٧

وأثبت السماع والرؤية بمثل قوله تعالى « إني معكما أسمع وأرى » (١) وقوله ﷺ « أيها الناس إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً » .

وقال : نحن نقول : لربنا الخالق عيان يبصر بهما ما تحت الترى وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما في السموات العلا وما بينهما من صغير وكبير ، ..

وتتوالى الأبواب على النحو التالي :

- إثبات اليد للخالق البارئ . جل وعلا ..
- إثبات الأصابع لله عز وجل ..
- إثبات الرجل لله عز وجل ..
- استواء خالقنا العلي الأعلى ..
- بيان أن الله عز وجل في السماء ..

وفي كل ذلك يؤكد المؤلف نفي التشبيه ويرفض المائة كما يرفض التعطيل .

ويقول : تعالى ربنا عن أن يكون وجه ربنا كوجه بعض خلقه ، وعن أن لا يكون له وجه ، إذ الله قد أهدانا في محكم تنزيله أن له وجهاً زواه بالجلال والإكرام ، ونفى الهلاك عنه .

* * *

كلام الله تعالى :

فصل المؤلف موضوع الكلام الإلهي فبين أن الله تعالى كلم موسى من وراء حجاب وشرح صفة كلام الله بالوحي وشدة خوف السموات منه وساق هذا الحديث :

« إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا ، قاله : فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا أتاهم جبريل فزع عن قلوبهم ، فيقولون : يا جبريل ماذا قال ربك ؟

قال : يقول الحق ، قال فينادون : الحق .. الحق ..

ثم ذكر أن الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة من غير ترجمان ، وساق آيات القرآن وآحاديث المصطفى التي يستشهد بها على أن القرآن كلام الله الخالق ، وقوله غير المخلوق ..

• • •

الرؤية :

وتحدث المؤلف عن رؤية جميع المؤمنين لله تعالى يوم القيامة سواء منهم البر والفاجر ، وبين أن جميع أمة النبي ﷺ والمنافقين وبعض أهل الكتاب يرون الله عز وجل يوم القيامة ، يراه بعضهم رؤية امتحان لارؤية سرور وفرح وتلذذ ..

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهري جهنم ، ويخص الله عز وجل أهل ولايته من المؤمنين بالنظر إلى وجهه نظر فرح وسرور وتلذذ ..

ثم ذكر الاخبار المأثورة في إثبات رؤية النبي ﷺ لخالقه العزيز
العليم ، ليلة الإسراء والمعراج ، وساق كلا من رأى ابن عباس . ورأى
السيدة عائشة ، ورجح رأى ابن عباس القائل بثبوت الرؤية ، وتقد موقف
عائشة في تفسيرها ، من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ،
وزعم أنها قالت ذلك في وقت غضب ، وأن نفي عائشة لا يوجب علماً ،
وأن إثبات ابن عباس هو الذي يوجب العلم ، فإن عائشة لم تحك من
النبي ﷺ أنه أخبرها أنه لم ير ربه ، وإنما تلت قوله تعالى « لا تدركه
الابصار » (١) وقوله جل شأنه « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً
أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا .. » (٢) .

وقال المؤلف :

ومن تدبر هاتين الآيتين ووفق لإدراك الصواب عيىم أنه ليس
في واحدة من الآيتين ما يستحق من قال إن محمداً رأى ربه — الروى بالفرية
على الله ، كيف بأن يقول قد أعظم على الله الفرية ١١ .

وقد علق في الهامش الدكتور هراس محقق الكتاب قائلاً :

ولكن لا بد للثبوت أن يورد دليل الإثبات ، ومثبتو الرؤية لم يقدموا
أدلة على ذلك .

والنفي هو الأصل حتى يقوم دليل الإثبات . .

وقد عيىمت السيدة عائشة رضى الله عنها فذهبها في النفي ببعض
الآيات التي ظنت أنها تشهد لها . .

(١) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى الآية ٥١ .

وإن عذر عائشة ورضي الله عنها أنها كانت تستعظم ذلك وتستنكره ،
ولهذا قالت لمسروق : لقد وقف شعري بما قلت . .
وليس من حق المؤلف أن يعلم أمه الأدب ، فهي أدري بما تقوله منه ،

الشفاعة :

ذكر المؤلف شفاعة النبي ﷺ التي خص بها دون الأنبياء ، وأن
النبي أول شافع وأول مشفع (١) ، وشفاعة النبي ﷺ لأهل الكبار من
أمته ، وأن الله يرضى نبيه في الشفاعة يوم القيامة حتى يقر بأنه قد رضى
بما أعطى في أمته من الشفاعة .

واختار المؤلف أن الصديقين يتلون النبي ﷺ في الشفاعة ، ثم سائر
الأنبياء ثم الشهداء .

• • •

حكم مرتكب الكبيرة :

ساق المؤلف الأخبار التي رويت في حرمان الجنة على من ارتكب
بعض المعاصي التي لا تزيل الإيمان بأسره ، وورد على المعتزلة والخوارج
واتهمهم بالجهل :

ومن هذه الأخبار قوله ﷺ :

« لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن خمر » .

(١) أول شافع أي أول طالب للشفاعة ، وأوله مشفع أي أول مقبول

« لا يدخل الجنة قاطع » .

« لا يدخل الجنة العاق لوالديه والديوث ورجلة النساء » (١) .

« من قتل نفسا معاهدة بغير حقها حرم الله عليه الجنة أن يشتم ويجهأ » .

وذكر أن المراد أحد معنيين :

الأول : لا يدخل الجنة أى بعض الجنان أى التى هى أشرفها وأعلاها وأكثرها نعيماً وسروراً وبهجة .

الثانى : كل وعيد فى الكتاب والسنة لأهل التوحيد فإنما هو على شريطة أى إلا أن يشاء الله أن يغفر ويصفح ويتكرم .

كما ساق المؤلف الأخبار التى تنفى دخول النار على من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان أو مات لا يشرك بالله شيئاً والتى احتج بها المرجئة قوتهموا أن مرتكب هذه الذنوب كمل الإيمان لا نقص فى إيمانه .

واختار أن المراد لا يدخلها دخول الأبد كدخول أهل الشرك والأوثان ، أو لا يدخلون النار موضع الكفار منها وإنما يدخلون مواضع أخرى للمذاب المنقطع الخاص بهصاة المؤمنين .

وبين جزاء آخر أهل النار خروجاً منها ودخولاً الجنة .

• • •

(١) أى المترجلة التى تشبه بالرجال .

ملاحظات :

١ - الكتاب قائم على الروايات والآثار والاحتجاج بنصوص الكتاب والسنة ، وليس فيه جدل المتكلمين ولا تفصيلات القضايا العقلية ولا تشقيقات المسائل الكلامية .

وعبارات المؤلف - كما وصفها محقق الكتاب - فيها ركادة وضعف في التأليف (١) .

٢ - أسلوب المؤلف خطابي يعتمد على إثارة العاطفة ، فيستخدم أساليب الاستفهام وأوصاف التشجيع وعبارات التعجب والاحتجاج باللائم على الخصم .

وعلى سبيل المثال فهو يقول :

وأما احتجاج الجهمية على أهل السنة والآثار في هذا النوع بقوله « ليس كئله شيء » ، فن القائل إن الخالق مثلاً أو إن له شياً ؟ ١٩

وهذا من التورية على الرخاع ، والسفل يمهون بمثل هذا على الجاهل ، يوهونهم أن من وصف الله بما وصف به نفسه في تحمق تزويل أو على لسان نبيه ﷺ فقد شبه الخالق بالخلق ، وكيف يكون خلقه مثله ياذوى الحجاء (٢) ١٩

ويقول رداً على الجهمية :

«مقاتلهم هذه توجب أن على أهل التوحيد الكفر بالقرآن وترك

(١) ص ١٦٢

(٢) ص ٢٨

الإيمان به ، وتمكذيب القرآن بالقلوب والإنكار بالألسن ، فأقذر بهذا
من مذهب ١١ وأقبح هذه الوجوه عندهم ، عليهم لعائن الله (١) ١١

٣ - يكثر المؤلف من وصف الجهمية والمعتزلة بالكفر والفسق
والضلالة ، ويدعو عليهم باللعة .

وعلى سبيل المثال يقوله :

• وزعمت الجهمية عليهم لعائن الله .

• ومعبود الجهمية عليهم لعائن الله كالأنعام التي لا تسمع ولا تبصر .

• نكرو بيت الجهمية وزورهم وكذبهم على علماء أهل الآثار ،
ورمهم خيار الخلق بعد الأنبياء بما الله قد نزههم عنه وبرأهم منه .

• لا كما زعمت الكفرة من الجهمية المعطلة .

• لعله كان يحضر مجالس أهل الويغ والضلالة من الجهمية المعطلة
والقدرية المعتزلة .

ويعد - فالكتاب يمثل نهاية مرحلة الصراع السياسي وبداية مرحلة
الصراع الفكري التي أثمرنا إليها في حديثنا عن نشأة علم العقيدة .

ويعد مصدرا أساسيا لفكر ابن تيمية وأنصار الاتجاه السلفي
الحديث .

المواقف في علم الكلام

لعضد الدين عبد الرحمن الإيجى
المتوفى سنة ٧٥٦ هـ

- المقدمة
- الموقف الأول : في المقدمات
- الموقف الثانى : فى الأمور العامة
- الموقف الثالث : فى الأعراض
- الموقف الرابع : فى الجوامر
- الموقف الخامس : فى الإلهيات
- الموقف السادس : فى السمعيات
- خاتمة المواقف

المواقف في علم الكلام

المقدمة :

هذا الكتاب^(١) من تأليف عضد الدين القاضى عبد الرحمن بن أحمد الإيجى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ ، وقد بين في مقدمته أن أرفع العلوم وأعلامها ، وأنفعها وأجداها ، وأحراها بعقد المهمة بها ، وإلقاء الشراشر^(٢) عليها ، وآداب النفس فيها ، وصرف الزمان إليها - علم الكلام .

ورأى المؤلف في زمنه أن هذا العلم قد اتخذ ظهريا ، وصار طلبه هند الأكتين شيئا فريا ، فأراد أن يسلك بطلاب العلم مسالك التحقيق .

وتصفح المؤلف الكتب المصنفة في هذا الفن فلم ير فيها ما فيه شفاء العليل أو رواء لغيل ، سبيا والمهم قاصرة والرغبات فائرة ، والدواعى قليلة ، والصوارف مكثرة .

كما وجد المؤلف أن الكتب المصنفة إما مختصرات قاصرة عن إفادة المرام ، وإما مطولات مدهشة للأفهام ، وأن من المؤلفين السابقين من غرضه نقل المذاهب والأقوال وتكثير السؤال والجواب ولا يبالي إلا المآل .

ومنهم من يلقق مغالط لترويج رأيه ولا يدري أن النقاد من ورائه .
ومنهم من يكبر حجم الكتاب بالبسط والتكرار ليظن أنه بحر زخار .

(١) طه عالم الكتب - بيروت ، ومكتبة المتنبي بالقاهرة ، ومكتبة :

سعد الدين بدمشق .

(٢) القاء الشراشر : المحرص عليه وجه

ومنهم من هو كحاطب ليل وجالب رجل وخيل^(١)، ولا يستعمل عقله
ليعرف أغث ما يأخذه أم ثمين ١٩
وسخيف ما ألفاه أم متين ١٩
وامتدح المؤلف كتابه فقال :

فداني الحذب على أهل الطلب ، ومن له في تحقيق الحق أرب ، إلى أن
كتبت هذا كتابا مقتصدا ، لامطرا مملأ ولا مختصرا مخلا ، أودعته
لب الألباب ، وميزت فيه القشر من اللباب ، ولم آل جهدا في تحرير
المطالب ، وتقرير المذاهب ، وترك الحبيج تبخر اقتضاها ، والشبه
تضائل اقتضاها .

وأكد المؤلف أنه تبه على نكت هي ينابيع التحقيق ، وفقر تهدي
إلى مظان التدقيق ، وأنه نظر من الموارد إلى المصادر ، وتأمل الخارج
قبل أن يضع قدمه في المداخل ، وأنه رجح القهقري يتأمل فيما قدم هل فيه
من قصور ؟ وهل يرى من فتور أو فطور ١٩

والكتاب مرتب على ستة مواقف ، والمواقف مقسمة إلى مراصد ،
والمراصد مقسمة إلى مقاصد .



(١) الرجل بكسر الجيم الماشي ، والخيل الراكب ، والمعنى أنه يسوق
الجميع ويصيح عليهم دون تمييز بين ما ينفع وما لا ينفع .

الموقف الأول :

في المقدمات

وتحدث المؤلف هنا عما يجب تقديمه في كل من التعريف والموضوع والفائدة والمرتبة والمسائل والتسمية .

وعرف علم الكلام بأنه علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه .

ثم تكلم عن تعريف مطلق العلم وذكر ثلاثة مذاهب هي :

١ - أنه ضروري واختاره الإمام الرازي .

٢ - أنه ليس ضروريا ويعسر تحديده، وبه قال إمام الحرمين الجويني والغزالي .

٣ - أنه نظري .

ثم ذكر أقسام العلم إلى تصور وتصديق، وانقسام العلم الحادث إلى ضروري ومكتسب، وحكى مذاهب العلماء في هذا المجال .

ثم قسم العلوم الضرورية إلى الوجدانيات وهي قليلة النفع في العلوم لأنها غير مشتركة، فلا تقوم بها حجة على الغير.. وإلى الحسيات والبدهييات، والناس فيها فرق أربع :

١ - المعترفون بها وهم الأكثرون .

٢ - القادحون في الحسيات فقط .

٣ - القادحون في البدهييات فقط .

٤ - المنكرون لها جميعا وهم السوفسطائية .

ثم بسط القول في النظر، فساق تعريفه وانقسامه إلى صحيح وفساد .

وبين أن النظر الصحيح يفيد العلم عند الجمهور، وشرح كيفية إفادة النظر للعلم، وتكلم عن النظر في معرفة الله تعالى وأنها واجبة إجماعاً، لكنهم اختلفوا في طريق الثبوت هل هو السمع أو العقل ؟ وما أول واجب على المكلف ؟

ثم ذكر أنواع الاستدلال وهي إما بالسكلى على الجزئى وهو القياس، وإما بالجزئى على السكلى وهو الاستقراء، وإما بجزئى على جزئى وهو التمثيل ويسميه الفقهاء قياساً.

وعد من الطرق الضعيفة قياس الغائب على الشاهد، لأنه لا بد من إثبات حلة مشتركة، وهو مشكل لجواز كون خصوصية الأصل شرطاً أو الفرع مانعاً.

ثم عدد القضايا القطعية السبع وهي :

الأوليات، وقضايا قياساتها معها، والمشاهدات، والمجربات، والحدسيات، والمتواترات، والوهميات.

وعدد الظنية أربعاً هي :

المسلبات والمشهورات والمقبولات والمقرونة بالقرائن.

ثم قسم المؤلف الدليل إلى عقلى بجميع مقدماته، أو نقلى بجميعها، أو مركب منها.

وطرح سؤالاً في نهاية هذا الموقف هو :

هل الدلائل النقلية تقيد اليقين ؟

وجاء الجواب هكذا :

قيل : لا، لتوقفه على العلم بالوضع والإرادة.

والأول إنما يثبت بنقل اللغة والنحو والصرف، وأصولها مثبتة برواية الأحاد، وفروعها بالأقيسة، وكلاهما ظنيان.

والثاني يتوقف على عدم النقل (إلى معنى آخر شرعي) والاشترك
والمجاز والإشمار والتنخيص والتعميم والتأخير ، والكلي لجوازه لانجوم
بانتفائه بل غايته الظن .

ثم بعد الأمرين لا بد من العلم بعدم المعارض العقلي ، وعدم المعارض
العقلي غير يقيني ، إذ الغاية عدم الوجدان ، وهو لا يفيد القطع بعدم
الوجود .

فقد تحقق أن دلالتها تتوقف على أمور ظنية فتكون ظنية ، لأن
الفرع لا يزيد على الأصل في القوة .
والحق أنها قد تفيد اليقين لقرائن مشاهدة أو متواترة تدل على انتفاء
الاحتمالات .

الموقف الثاني :

في الأمور العامة

ويعني المؤلف بالأمور العامة ما لا يختص بقسم من أقسام الوجود ،
التي هي الواجب والجوهر والعرض .

وبدأه بهذا التساؤل : هل المعدوم ثابت أم لا ؟ وهل هناك واسطة
بين الوجود والمعدوم — وهو الخال — أم لا ؟

ثم تكلم عن الوجود والعدم في التعريف ، وأنه مشترك ، وأن
الوجود نفس الماهية أو جوؤها أو زائد عليها ، والوجود الذهني ، وهل
المعدومات تمايز أم لا ؟ وهل المعدوم شيء أم لا ؟

ثم بحث المراد بالشيء هل هو الوجود ، أو المعلوم ، أو هو القديم
حقيقة وللحادث مجازاً ، أو هو الجسم . الخ وانتهى إلى أن النزاع لفظي .

(١١ — التمهيد)

وتكلم عن الحال الذي هو واسطة بين الموجود والمعدوم وقال :
أثبتته إمام الحرمين والقاضي منا وأبو هاشم من المعتزلة، وبطلانه ضروري
وساق تعريفات القائلين بالحال... ثم شرح الماهية تحت اثني عشر
مقصداً منها :

- ١ - تميز الماهية عما سواها ..
 - ٢ - الماهية إذا أخذت مع قيد زائد تسمى غلوطة وبشرط شيء،
ووجودها بما لا مرية فيه .
 - وإذا أخذت بشرط الخلو عن اللواحق سميت مجردة، وبشرط
لا شيء، وأنها لا توجد في الخارج وإلا لحقها الوجود والتعين فلم تكن
مجردة .
 - ٣ - قال أفلاطون يوجد من كل نوع فرد مجرد أزلي أبدي قابل
للمتقابلات ..
 - ٤ - الماهية إما بسيطة أو مركبة .
 - ٥ - في تقسيم الأجزاء .
 - ٦ - الماهيات هل هي مجمولة أم لا ؟
 - ٧ - المركب إما ذات وإما صفة ..
 - ٨ - الماهية تقبل الشركة دون التعين ، فهو غيرها، وقد اختلف
في التعين هل هو وجودي أم لا ؟
- ثم انتقل المؤلف إلى الوجوب والإمكان والامتناع وساق أبحاث
الواجب لغاته، وأبحاث الممكن لغاته، وأبحاث القديم، وأبحاث
الحديث وقال إن الحادث هو المسبوق بالعدم وعدم الحادث متقدم على
وجوده ضرورة ..

ثم تكلم عن الوحدة والكثرة ، وعرف الوحدة بكون الشيء لا ينقسم إلى أمور تشاركه في الحقيقة ، وعرف الكثرة بكون الشيء بحيث ينقسم إلى أمور تشاركه في الحقيقة ..

وأكد بمجموعة قضايا منها أن الاثنين هما المتبايران ، وأن الاثنين لا يتحدان ، وأن الاثنين عند أهل الحق ثلاثة أقسام :

المثلان والضدان والمتخالفان .

وختم الموقف الثاني بالحديث عن العلة والمعلول وبين أن المحتاج إليه يسمى علة ، والمحتاج يسمى معلولا ، وأن العلة إما جزء الشيء أو خارج عنه ، وأن الواحد بالشخص لا يحل بعلمين مستقلتين ، وأنه يجوز عند المتكلمين استناد آثار متعددة إلى مؤثر واحد بسيط ، ومنعه الحكما إلا بتعدد آلة أو شرط أو قابل ..

وشرح معنى الدور والتسلسل وحكم بأنهما من المحال ..

• • •

الموقف الثالث :

في الأعراض

بدأ بمقدمة في تقسيم الصفات إلى نفسية تدل على الذات دون معنى زائد ، ومعنوية وهي التي تدل على معنى زائد ..

ثم عرف العرض وذكر أقسامه عند المتكلمين والحكما ، وشرح أحكامه بأنه لا ينتقل ، ولا يجوز قيام العرض بالعرض ، ولا يقوم العرض بمحلين ، ولذلك نجزم بأن السواد القائم بهذا المحل غير القائم بالمحل

الأخر ، وذهب الشيخ الأشعري ومتبعوه إلى أن العرض لا يبقى زمانين .
وقالت الفلاسفة ببقاء الأعراض ..

ثم تكلم عن الكم وخواصه وأقسامه ، والزمان وحقيقته ، والمكان
ووجوده ..

ثم خاض المؤلف في الكيفيات وقسمها إلى أربعة :

المحسوسة ، والنفسانية ، والمختصة بالكميات ، والاستعدادات ، وقسم
المحسوسة إلى الملموسات والمبصرات والمسموعات ... وتكلم في الكيفيات
النفسانية عن الحياة والموت والعلم والجهل ومراتب العقل ، والمزاج ،
والحجة واللذة والألم ..

وتكلم في الكيفيات المختصة بالكميات عن الوجودية والفردية
والتثليث والتربيع والخط المستقيم ..

وأخيرا تكلم عن المقولات النسبية وأنواع الكون الأربعة والحركة
والكم والكيف والعلة للحركة الطبيعية ..

وشرح خواص المضاف وتقسيمات الإضافة وأنواع التقدم بالعلية
والذات والزمان والشرف والرتبة ..

الموقف الرابع :

في الجواهر

وبدأ بتقسيم الحكاء الجوهر إلى ما كان حالاً وهو الصورة ، وما كان محالاً وهو الهيولى ، وما كان مركباً منهما وهو الجسم ، وما كان متعلقاً بالجسم تعلق التدبير والتصرف وهو النفس وإلا فهو العقل ..

وهذا بناء على نقي الحكاء للجوهر الفرد ..

وقال المتكلمون لا جوهر إلا المتحيز ، فإما أن يقبل القسمة وهو الجسم أولاً يقبلها وهو الجوهر الفرد ..

ثم شرح حقيقة الجسم وأجزائه ، وأثار بعض القضايا الهندسية كالربيع والمثلث والدائرة ، والضلع ، والقطر ، والوتر ، والمحيط ..

ثم تكلم عن الأفلاك وقال إن عددها بالرصد تسعة وهي فلك الأفلاك وهو المسمى بالفلك الاطلسي ، وبالعرش المجيد في لسان الشرع ، وتحت فلك الثوابت ثم فلك زحل ثم فلك المشتري ثم فلك المريخ ثم فلك الشمس ثم فلك الزهرة ثم فلك عطارد ثم فلك القمر وهو السماء الدنيا ، وعاض في حركة الأفلاك والفصول الأربعة والبروج ، وخسوف القمر وكسوف الشمس ، والعناصر الأربعة وكروية الأرض وتضاريسها وطبقاتها ..

وشرح معاني المطر والثلج والظل والصقيع والدخان والرعد والبرق والصاعقة والشهب والأذتاب والنيازك ..

وقسم المعادن إلى متطرقة كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد ، وإلى غير متطرقة كالزئبق والزرنيخ ..

وقسم المزاج إلى :
الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة .

وقسم النفس إلى :
النباتية والحيوانية والإنسانية .

وساق الأدلة على حدوث الأجسام وصحة فناء العالم وأن الجسم
لا يخلو عن العرض وضده ، وأن الأبعاد متناهية سواء كانت في ملاء
أو خلاء ..

وختم بمجموعة مباحث تتعلق بالنفس والعقل ..

• • •

الموقف الخامس :

في الإلهيات

وقد شرح المؤلف هذا الجانب في مجموعة اتجاهات ، سماها مراصد ،
هي على النحو التالي :

١ - إثبات الصانع :

وذكر مسائل المتكلمين والحكام في الاستدلال على وجود الله تعالى
بحدوث العالم وإمكانه ..

وأشار إلى أن ذاته تعالى مخالفة لسائر النوات ، فهو سبحانه منزه
عن المثل والتد ..

وتكلم عن أن وجوده تعالى نفس ماهيته أو زائد عليها ؟

وأنه مساو لوجود الممكنات أو مخالف ؟

٢ - في تنزيهه تعالى :

وأراد بالتنزيه الصفات السلبية وهي أنه تعالى ليس في جهة ولا مكان ، وأنه تعالى ليس بجسم ، وليس جوهرأ ولا عرضاً ، وليس في زمان ، وأنه تعالى لا يتحد بغيره ولا يحل في غيره ، وأنه تعالى يتمتع أن يقوم بذاته حادث ، ولا يتصف بشيء من الأعراض . .

٣ - في توحيدته تعالى :

وهو أنه يتمتع وجوده للمعين مستجمعين لشرايط الإلهية وساق دليل المتكلمين والحكام . .

٤ - في الصفات الوجودية :

تكلم عن إثبات الصفات على وجه عام ثم تكلم عن القدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والحياة والكلام . .
وشرح مسألة القرآن هل هو مخلوق أو قديم ؟ ثم ذكر صفات اختلف فيها وهي :

البقاء هل هو زائد على الوجود أم لا ؟ ١٤

والقدم هل هو قديم بنفسه أم بقدم زائد ؟ ١٤

والاستواء والوجه واليد والعينان والجنب والقدم والأصبع واليمين

هل هذه صفات أو معان مجازية ؟ ١٤

٥ - فيما يجوز عليه تعالى :

وبحث هنا موضوعين :

الأول : الرؤية وجعل الحديث عنها في مقامات ثلاثة :

(١) الصحة فذهب الأشاعرة إلى أنه تعالى يصح أن يرى ، ومنعه

الأكثرون .

(ب) وقوع الرؤية ، والآراء ثلاثة : يصح ويرى ، لا يرى ولا يصح ، يصح ولا يرى . .

(ج) شبه المنكوبين ، وقسمها إلى عقلية ونقلية .

الثاني : في العلم بحقيقة الله تعالى ، والكلام في الوقوع والجواز ، أما الوقوع فإن حقيقة الله تعالى غير معلومة للبشر ، وعليه جمهور المحققين ، وقد خالف فيه كثير من المتكلمين .

وأما الجواز ، ففي جواز العلم بحقيقة الله تعالى خلاف ، ومنه الفلاسفة .

٦ - في أفعاله تعالى :

وقد طالج مجموعة قضايا مهمة هي :

• أن أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدره الله تعالى وحدها ، وقالت المعتزلة بقدره العبد وحدها ، وقالت طائفة بالقدرتين .

• التوليد فالمعتزلة لما أسندوا أفعال العباد إليهم ورأوا فيها ترتباً قالوا بالتوليد ، وهو أن يوجب فعل لفاعله فعلاً آخر ، نحو حركة اليد والفتاح وقد أبطله الأشاعرة لاستناد جميع الممكنات إلى الله تعالى ابتداء

• البحث عن أمور صرح بها القرآن وانعقد عليها الإجماع وهم يؤولونها وهي :

— الطبع والحتم والآكنة . .

— التوفيق والهداية . .

— الأجل وهل المقبول ميت بأجله أم لا ؟

— الرزق هل هو كل ما ساقه الله إلى العبد أم هو الجلال فقط ؟

- الأسماء فالسعر هو الله ، وأما عند المعتزلة فيختلف فيه هل هو فعل مباشر من العبد أم هو متولد من فعل الله ؟
- إرادة الله تعالى لجميع الكائنات أو للأمرور به فقط ؟
 - الحسن والقبح شرعيان أو عقليان ؟
 - تكليف ما لا يطاق جائز عند الأشاعرة ومنعه المعتزلة لقبه ؟
 - ذهب الأشاعرة إلى أن أفعال الله تعالى ليست معلة بالأغراض ،
وخالفهم المعتزلة ..

٧ — في أسماء الله تعالى :

تكلم المؤلف على أن الاسم غير التسمية ، وبين أقسام الاسم ،
وشرح الأسماء التسعة والتسعين وقال عقب ذلك : فهذه هي الأسماء
الحسنى ، نسأل الله بركتها أن يفتح علينا أبواب الخير ، ويغفر لنا ،
ويرحمنا ، إنه هو الغفور الرحيم .

• • •

الموقف السادس : في السمعيات :

وحصر المؤلف السمعيات في أربعة موضوعات هي :

- ١ — النبوات .
- ٢ — المعاد .
- ٣ — الأسماء والأحكام .
- ٤ — الإمامة .

وفي موضوع النبوات شرح معنى النبي وحقيقة المعجزة وكيفية
حصولها وإمكان البعثة ، وإثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وإعجاز القرآن ،
وعصمة الأنبياء ، والمفاضلة بين الأنبياء والملائكة ..
وختم هذا الموضوع بكرامات الأولياء ، وأنها جائزة عند أهل
السنة ، وواقعة خلافا للأستاذ ابن إسحق والحلي ..

وفي موضوع المعاد شرح جوانب متعددة وعرض لقضايا كثيرة
مثل إعادة المعدم ، وحشر الأجساد ، والجنة والنار هل هما مخلوقتان ؟
والثواب والعقاب هل هما واجبان أم أن الثواب فضل والعقاب
عده ؟

وحكم مرتكب الكبيرة وعصاة المؤمنين ، ورأى المعتزلة في
الإحباط أي إحباط الطاعات بالمعاصي ، وشفاعة سيدنا محمد ﷺ ،
والتوبة وحقيقتها وأحكامها ، وإحياء الموتى في قبورهم ، والصراف
والميزان والحساب وقراءة الكتب والخوض المورود ، وشهادة
الأعضاء ...

وفي موضوع الأسماء والأحكام تكلم عن حقيقة الإيمان وهل
يزيد وينقص ؟

وشرح حكم المخالف للحق من أهل القبلة هل يكفر أم لا ؟
وذكر تكفير كل فرقة لمخالفها ، وأنكر ذلك ، وورد دعاوى
التكفير ، وأثبت أن جمهور المتكلمين والفقهاء على أنه لا يكفر أحد
من أهل القبلة .

وفي موضوع الإمامة ناقش وجوب نصب الإمام ، وشروط الإمامة ،
وما تثبت به ، ومن هو الإمام الحق بعد رسول الله ﷺ وحكم إمامة
المفضول مع وجود الفاضل ..

وأوجب المؤلف تعظيم الصحابة كلهم والكف عن القدح فيهم لأن
الله عظيمهم وأثنى عليهم في غير موضع من كتابه ، والرسول ﷺ قد
أحبهم وأثنى عليهم في أحاديث كثيرة ..

خاتمة المواقف :

جماعت خاتمة الكتاب في ذكر الفرق التي أشار إليها الرسول ﷺ بقوله « ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، وهي ما أنا عليه وأصحابي » .

وجعل المؤلف كبار الفرق ثمانية هي :

المعتزلة — الشيعة — الخوارج — المرجئة النجارية — الجبرية — المشبهة — الناجية .

وحدد المؤلف الفرقة الناجية بأنها الأشاعرة والسلف من المحدثين وأهل السنة والجماعة ، .

وساق اعتقادهم ثم قال : ولأنكفر أحدا من أهل القبلة إلا بما فيه نقي للصانع القادر العليم ، أو شرك ، أو إنكار للنبوة ، أو ما علم بجيئه عليه السلام به ضرورة ، أو لجمع عليه كاستحلال المحرمات .

وأما ما عدها فالقاتل به مبتدع ضير كافر ، وللفقهاء في معاملاتهم خلاف ، هو خارج عن فئتنا هذا ..

• • •

تعقيب :

تحمل عضد الدين الإيجي حملا ثقيلا ، واستوعب تراثا ضخما ، وحقق قضايا عدة ، وعرض لمذاهب شتى ، شملت العلم في فنونه كلها ..

لقد غاض في المنطق حين تكلم عن النظر والتصوير والتصديق وأنواع الاستدلال .

وخاض في الفلسفة حين تكلم عن الجوهر والعرض ، والوجوب والإمكان والحدوث ، والوحدة والكثرة ، والعلة والمعلول .

وخاض في الفلك حين تكلم عن الكواكب والنجوم وحركاتها ، والكسوف والخسوف .

وخاض في الرياضيات حين تكلم عن المثلث والمربع والدائرة والخط المستقيم .

وخاض في الجغرافيا حين تكلم عن كروية الأرض وطبقاتها ومعادنها والعناصر الأربعة ..

وخاض في الكيمياء حين تكلم عن المركبات والعناصر ..

وخاض في الطبيعة حين تكلم عن الصوت والضوء ..

وخاض في علم النفس حين تكلم عن النفس والعقل والمواج واللذة والألم ..

بالإضافة إلى كل علوم الشريعة واللغة .

وساق ضد الدين الإيجي كل مذاهب الفلاسفة والمتكلمين في قضايا العقيدة بأمانة في النقل والعرض ، ودقة في المناقشة والنقد .

الأمر الذي يدل على عقلية الجبارة ، وقدرته الفائقة ، ومهارته العالية .

ومع ذلك فإن التساؤل المطروح هو :

هل قضايا العقيدة متوقفة على هذه المقدمات البعيدة والغريبة التي استوهبت أربعة مواقف من ستة ، هي مجموعة مباحث الكتاب ١٤ ؟

أظن أن الأمر أهـون من ذلك ، وأن أمور العقيدة في وضوحها
ويسرها لني غنى عن هذه المسالك الوعرة ..
ولهذا وقف العلماء من هذا الاتجاه الكلامي الموحل في الفلسفة
موقفين :

موقف الرفض ، وموقف القبول ..

وعلى سبيل المثال فإن الشيخ السنوسي في عقيدته الصغرى يقول :

وليحذر المبتدئ جهده أن يأخذ أصول دينه من الكتب التي حشيت
بكلام الفلاسفة ، وأولع مؤلفها بنقل هوسهم وما هو كفو صراح من
عقائدهم ، التي ستروا نجاستها بما يلبيهم على كثير ، من اصطلاحاتهم
وعباراتهم التي أكثرها أسماء بلاسميات .

وذلك ككتب الإمام الفخر في علم الكلام ، وطوالح اليبضاوى ،
ومن حذا حذوهما في ذلك .

وقل أن يفلح من أولع بصحبة كلام الفلاسفة أن يكون له نور إيمان
في قلبه أو لسانه .

وفي حاشيته على الكتاب قال الشيخ محمد المسوق :

« أو من سلك مسلكها (الفخر الرازى واليبضاوى) كالارموى
والعلامة السعد والعضد وابن عرفة . »

ثم نقل عن البرهان اللقاني قوله في هداية المرید :

إن كلام الأوائل كان مقصوراً على الذات والصفات والنبوات
والسميات ، فلما حدثت طوائف المتبدعة كثر جدالهم مع علماء الإسلام ،
وأوردوا شياً على ما قرره الأوائل ، وغلطوا تلك الشبه بكثير من

قواعد الفلاسفة ليستروا ضلالهم ، فتصدى المتأخرون كالفخر ومن ذكر معه لدفع تلك الشبه ، وهدم تلك القواعد ، فاضطروا لإدراجها في كتبهم لأجل أن يتمكنوا من الرد عليها ، ببيان المقصود منها ، وإيضاح مفاسدها .

فظهر أنهم معذورون في إدراجها في كتبهم ، ولا لوم عليهم في ذلك ، ولا يصح توجيه اللوم إليهم .

وتحذير المتأخرين عن تعاطي كتبهم إنما هو للقاصرين الذين لا يصلون لفهمها ، ثم نقل عن الشيخ الملوي أنه لا اعتراض على الإمام الفخر الرازي ومن معه لأنهم فعلوا ذلك ليتمكنوا من الرد على طوائف المبتدعة ، فقد فعلوا المناسب في ذلك الزمان ، (١) .

(١) حاشية على شرح أم البراهين ، تأليف محمد بن أحمد بن عرفة القسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ وبهامش شرح أم البراهين لمحمد بن يوسف السنبوسي الحسيني المتوفى سنة ٨٩٥ هـ ص ٧٠ ط الحلبي سنة ١٣٥٨ هـ سنة ١٩٣٩ م .

شرح العقيدة الطحاوية

للعلامة ابن أبي العزّ السبكي

المتوفى ٧٩٢ هـ

- تقديم
- قضية التوحيد
- نبوة سيدنا محمد ﷺ
- رؤية الله تعالى
- مسائل عقديّة
- ملاحظات

شرح العقيدة الطحاوية

تقديم :

هذا الكتاب من أهم كتب العقيدة السلفية بين طلاب العلم في المملكة العربية السعودية .

والكتاب يقوم على متن وشرح .

أما المتن فهو المسمى « العقيدة الطحاوية » نسبة إلى الإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلة بن عبد الملك الأزدي الطحاوي من قرية طحا بصعيد مصر ، وله سنة ٢٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٢١ هـ .

أما الشرح فقد ظل مجهولاً جيناً من الدهر ثم تبين أنه لصدر الدين محمد ابن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي ، المولود سنة ٧٣١ هـ والمتوفى بدمشق سنة ٧٩٢ هـ على الأرجح .

وكلا الإمامين حنفي المذهب ، قال الشارح في مقدمته : « ومن قام بهذا الحق (حفظ أصول الدين) من علماء المسلمين الأمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأودي الطحاوي ، تغمده الله برحمته ، بعد المائتين ، فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومائتين ، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

فأخبر — رحمه الله — عما كان عليه السلف ، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ، وصاحبه أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الخيري الأنصاري ، ومحمد بن الحسن الشيباني رضي الله عنهم — ما كانوا يعتقدون من أصول الدين ، ويدعون به رب العالمين ،^(١) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية — تحقيق جماعة من العلماء ص ٦٩ ط
المكتب الإسلامي سنة ١٣٩٩ هـ بيروت .

(١٢ - التمهيد)

ونعى الشارح على البدع والتعريفات التي ظهرت بعد عصر الراشدين،
ورفض مسألة التوفيق بين العقل والنقل على طريقة المتكلمين والفلاسفة،
وسمى عقلياتهم جهليات.

قضية التوحيد :

ثم بدأ الشارح التعليق على عبارة المؤلف :

« نقول في توحيد الله معتقدين — بتوفيق الله — أن الله واحد
لا شريك له . » .

فيين أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق ، وأول مقام
يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل .

واختار الشارح أن أول واجب على المكلف هو الشهادتان ، وليس
النظر ، ولا القصد إلى النظر ، ولا الشك .

وقسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع :

• توحيد الأسماء والصفات .

• توحيد الربوبية .

• توحيد الإلهية .

وناقش نقاة الصفات في قولهم :

إن إثبات الصفات يستلزم تعدد الواجب .

وقد ذهب إلى أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم صانعين متماثلين في
الصفات والأفعال ، فإن الثنوية من المجوس ، والمناوية القائلين بالأصلين ،
النور والظلمة ، وأن العالم صدر عنها — متفقون على أن النور خير من
الظلمة ، وهم متنازحون في الظلمة ، هل هي قديمة أو محدثة ، فلم يثبتوا
بين متماثلين .

وأما النصارى القائلون بالتثليث، فإنهم لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب
ينفصل بعضهم عن بعض، بل يتفقون على أن صانع العالم واحد، ويقولون
باسم الآب والابن وروح القدس، إله واحد، وقولهم في التثليث متناقض
في نفسه وقولهم في الحلول أشد منه .

ويرى الشارح أن توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون
العكس . .

ويسوق اتفاق أهل السنة على أن الله ليس كمثل شيء، لا في ذاته
ولا في صفاته ولا في أفعاله، ثم يستدرك بأن لفظ التشبيه قد صار في
كلام الناس لفظاً مجملاً يراد به المعنى الصحيح .

ويؤكد الشارح أن النفاة المعطلة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن
التشبيه بشيء من خلقه ولكن أساءوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالى
في نفس الأمر . .

والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه .

فكلا الفريقين زادوا على الحق فضلوا . .

وأتهم الشارح المتكلمين بأنهم أدخلوا في أسماء الله تعالى لفظ القديم،
وأن كثيراً من السلف والخلف ينكرون ذلك .

ويقسم الشارح إرادة الله تعالى إلى نوعين :

• إرادة قدرية كونية وهي المشيئة العامة الشاملة لجميع الموجودات . .

• إرادة دينية شرعية وهي المتضمنة للمحبة والرضا . .

وحوله تعلق الحوادث بذات الرب تعالى يرى ابن أبي العز أنه لم

يرد نفي لذلك ولا إثبات في كتاب ولا سنة، وأن هذه المسألة فيها
إجمال :

فإن أريد بالنق أنه سبحانه لا يحل في ذاته المقدسة شيء من مخلوقاته المحدثه ، أو لا يحدث له وصف متجدد لم يكن ، فهذا نق صحيح . .

وإن أريد به نق الصفات الاختيارية ، من أنه لا يفعل ما يريد ، ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى لا كأحد من الورى ، ولا يوصف بما وصف به نفسه من النزول والاستواء والاتبان كما يليق بجلاله وعظمته ، فهذا نق باطل . . (١)

ويقبل الشارح تسلسل الحوادث أزلا وأبدآ ، فأفعال الله تعالى دائمة في الأبد ، كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لا تفاد له ، وأن كل فعل من طرف الأزل مسبق بفعل آخر ، ويرفض أن يكون الله موجوداً وحده ولا مخلوق معه أصلاً ، لأن الفعل آكل من عدم الفعل ، وأن الفعل والإرادة متلازمان . .

ويسمى هذا التسلسل بالتسلسل الواجب الذي دل عليه العقل والشرع (٢) . .

ويحرص الشارح على إثبات الجهة والفوقية لله تعالى ويقول :
لو لم يتصف سبحانه بفوقية الذات مع أنه قائم بنفسه ، خير مخالط للعالم ، لكان متصفاً بضد ذلك ، وضد الفوقية السفول ، وهو مذموم على الإطلاق ، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده . .
ولو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها .

(١) ص ١٢٩

(٢) راجع ص ١٢٥

ويسوق الشارح عشرين نوعاً من النصوص يراها دليلاً على مذهبه ،
عنها قوله تعالى « وهو العلي الكبير » ..

• • •

نبوة سيدنا محمد ﷺ :

يرى ابن أبي العز الدمشقي أن دلائل نبوة الأنبياء غير محصورة في
المعجوزات ، وأن من عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لفعله
— جلم يقينا أنه ليس بشاعر ولا كاهن ..

ويؤكد الشارح أن إنكار رسالة سيدنا محمد ﷺ طعن في الوهب
تبارك وتعالى ، ونسبة له سبحانه إلى الظلم والسفه لأنه أيده ونصره
ومكن لدينه ودولته ..

وفرق بين النبي والرسول بأن من نبأ الله بخبر السماء ، إن أمره أن
يبلغ غيره فهو نبي رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس
برسول ، فالرسول أخص من النبي ..

وشرح ابن أبي العز مسألة التفاضل بين الأنبياء ، وأثبت
لسيدنا محمد ﷺ أعلى مراتب المحبة وهي الخلة ، ورفض قول من
قال إن الله خص إبراهيم بالخلة ومحمداً بالمحبة ، وقال إن الخلة تخص
إبراهيم ومحمداً عليهما الصلاة والسلام ، واستدل بالحديث الشريف
« إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، وبالحديث الآخر
« لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن
صاحبكم خليل الرحمن ، ..

أما المحبة فهي عامة لكل المؤمنين ..

ثم تكلم عن ختم النبوة وعموم الوسالة المحمدية ، والإسراء والمعراج ،
والخوض والشفاعة .. إلخ .

• • •

رؤية الله تعالى :

عد ابن أبي العز مسألة الرؤية من أشرف مسائل أصول الفين وأجلها ،
وجعلها الغاية التي شمر إليها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون .

وساق مذاهب المخالفين لأهل السنة من الجهمية والمعتزلة والخوارج
والإمامية ، ورد استدلال المعتزلة بقوله تعالى « لن تراني » وقوله جل شأنه
« لا تدركه الأبصار ، وأكد أن أحاديث الرؤية رواها نحو ثلاثين
صحابيا .

ثم حدد محل الاتفاق بين أهل السنة ، وهو رؤية أهل الجنة لهم ،
لكنهم اختلفوا في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال :

١ - أنه لا يراه إلا المؤمنون .

٢ - أنه يراه أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب عن الكفار
ولا يرونه بعد ذلك .

٣ - أنه يراه مع المؤمنين المنافقون دون بقية الكفار .

ثم أكد الشارح أن الأمة اتفقت على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه ،
ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا محمد ﷺ خاصة ، منهم من نرى رؤيته
بالمين ، ومنهم من أثبتها له ﷺ .

وساق رأى القاضي حياض بأنه ليس هناك قاطع ولا نص في رؤية

الرسول لربة بعينه ، والمعول فيه على آيتي النجم ، والتنازع فيها مأثور ،
والاحتمال لهما ممكن .

• • •

مسائل عقديّة :

وتوات المسائل والموضوحات فشرح ابن أبي العز :

- ميثاق نبي آدم .
- القضاء والقدر .
- الإيمان بالملائكة .
- الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين .
- التفاضل بين الأنبياء والملائكة ، وعدّها من فضول المسائل ،
ونقل أن أبا حنيفة توقف في الجواب عنها .
- حكم مرتكب الكبيرة .
- الإيمان والإسلام .
- طاعة ولي الأمر ولو كان جائرًا عالم يأمر بمعصية .
- عذاب القبر ونعيمه .
- البعث والحساب والجزاء .
- دعاء الأحياء وصدقاتهم للأموات .
- كرامة الأولياء .
- أشراف الساعة .

وختم الكتاب بتعريف موجز لفرق المعتزلة والجهمية والجبورية

والقدرية ، وشبه علماء المعتزلة باليهود ، وشبه عباد الصوفية
بالتصاري .

• • •

ملاحظات :

١ - إن عقيدة الطحاوي محل قبول لدى جمهور العلماء سلفا وخلفا
- كما قال السبكي - لكن الشارح ابن أبي العز أسقط عليها إسقاطات
لا يعرفها الطحاوي ولا يقصدها .

فند أول عبارة للطحاوي وهي :

نقول في توحيد الله معتقدين - بتوفيق الله - أن الله واحد
لا شريك له .

إذا بالشارح يتكلم عن أول واجب على المكلف ويرجح أنه
الشهادتان ، ثم يقسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع ، هي توحيد الأسماء
والصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ، ويثبت الجبهة والفوقية لله
تعالى ، ويخوض في أشياء ليست محل قبول لدى جمهور العلماء ، وهي تمثل
اجتهاد فرد ، يؤخذ منه ويرد عليه .

وقد وقع الشارح في حيص بيص ومأزق شديد حين وقف أمام قول
الطحاوي :

« وتعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات ،
لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات ، » .

وأخذ الشارح يسوق تفسيرات ويدخل في تأويلات حتى لا يتناقض

مع رأيه في الجهة والفوقية ، وزعم أنه كان الأول بالشيخ الطحاوي ترك
هذه الالفاظ (١) ..

٢ - إذا كان ابن أبي العز قد نعى على المتكلمين اصطلاحاتهم
بوتشقيقاتهم فقد وقع فيما تقدمه ، وخاض فيما نهى عنه ، وكان منهجه في
معالجة قضايا الخلاف قائما على المنهج الكلامي (٢) .

ومن الأمور الجديرة بالاعتبار أن أنصار الاتجاه السلفي يحتجون دائما
في مواجهة مخالفهم بأن ذلك لم يرد أو لم يتكلم فيه الصحابة أو لم يعرفه
السلف ..

ونسوق موقفا لابن أبي العز لعله يكون أبلغ رد على هؤلاء المتسلفين :
ففي مسألة قراءة القرآن وإهداء ثوابها للميت قال الشارح :
وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعا بغير أجره فهذا يصل إليه كما
يصل ثواب الصوم والحج ، فإن قيل :

هذا لم يكن معروفا في السلف ، ولا أرشدهم إليه النبي ﷺ ؟

فالجواب :

إن كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصوم والصدقة
قبل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟

وليس كون السلف لم يفعلوه - حجة في عدم الوصول ..

ومن أين لنا هذا النفي العام ؟

فإن قيل : فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة
دون القراءة ؟

(١) راجع ص ٢٣٨ : ٢٤٥

(٢) راجع ما قلناه سابقا في نشأة علم العقيدة وتطوره

قيل : هو **صوم** لم ينتدسهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب
لحم ، فهذا سأله عن الحج عن ميتة ، فأذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم
عنه ، فأذن له فيه ، ولم يمنهم بما سوى ذلك .

وأى فرق بين وصول ثواب الصوم - الذى هو مجرد نية وإمساك -
وبين وصول ثواب القراءة والذكر . . ؟ (١) .

وبعد :

فالكتاب فيه عرض لكافة عقائد الدين ، وكثير من قضاياها محل
اتفاق لدى أهل السنة ، ومواطن الاختلاف تكمن فى مسألة الأسماء
والصفات ، وإثبات جهة العلو والفوقية ، والكلام الإلهى الذى فسر
بالصوت والحرف .

رسالة التوحيد

للأستاذ الإمام محمد عبده

١٢٦٦ - ١٢٢٣ هـ

• المؤلف وسبب التأليف

• المقدمات

— علم التوحيد ومنهجه

— عصر الخلافة

— حلة المشاطل

— موقف الفلاسفة

— مذهب الأستاذ الإمام

• الإلهيات

• النبوات

• ترقى الأديان بترقى الإنسان

• انتشار الإسلام

• ولنا ملاحظات

رسالة التوحيد

المؤلف :

هو الأستاذ الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ) مفتي الديار المصرية، وتلميذ الإمام جمال الدين الأفغاني، وشيخ السيد محمد رشيد رضا ..

سبب التأليف :

شرح الشيخ محمد عبده في مقدمة رسالته^(١) أسباب التأليف ومراحل التدوين، فذكر أنه أبعث عن مصر سنة ١٢٩٩ هـ وعاش في بيروت، فدهى لإلقاء دروس في المدرسة السلطانية، فأمل على تلاميذه ما فتح الله به عليه في علم التوحيد ..

فلما عاد إلى مصر نسي ما أملى، وذهب عن خاطره جميع ما ألقى، ثم بدا له أن يشغل أوقات فراغه بمداينة شيء من علم التوحيد، فأرسل إلى بعض تلاميذه يطلب منه ما سجله في دفتره وتلقاه بين يديه ..

وحين وصلته تلك الأمانى قرأها فإذا المكتوب قريب مما أحب، فيه مسلك السلف، بلا عيب في سيرة آراء الخلف، لكنه يحتاج إلى بسط بعض عباراته، وتحريير بعض مقدماته، وزيادة ما غفل، وحذف ما فضل ..

(١) تحقيق محمود أبو رية ط الرابعة - دار المعارف بمصر

المقدمات :

رسالة التوحيد تقوم على مجموعة مقدمات وبعض مباحث تتعلق بالإلهيات والنبوات .

١ — علم التوحيد ومنهجه :

في المقدمات عرف علم التوحيد بأنه علم يبحث فيه عن وجود الله تعالى وما يجب أن ينسب له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينق عنه ...

وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم ..

ثم ذكر أن علم تقرير العقائد كان معروفاً عند الأمم ، وأن القائمين على أمر الدين قبل الإسلام قلما ينهون في بيانهم نحو الدليل العقلي ، وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته ..

فلما جاء القرآن نهج بالدين منهجاً يمكن لأهل الزمن الذي أنزل فيه ولمن يأتي بعدهم أن يقوموا عليه ، فأقام الدعوى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان ..

وتأخى العقل والدين لأول مرة في كتاب مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل ، وأجمع المسلمون — إلا من لا يعتد بعقله ولا دينه — أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل ..

٢ - عصر الخلافة :

وبدأ الشيخ محمد عبده يؤرخ لنشأة علم التوحيد فأكد أن النبي ﷺ كان المرجع في الحيرة ، والسراج في ظلمات الشبه ، ومضى زمنه وزمن الخليفين أبي بكر وعمر ولم يكن هناك خلاف في أصول العقائد ، وأغلب الخلاف كان في فروع الأحكام ، وكان الناس يفهمون إشارات الكتاب ونصوحه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوم التشبيه ، ويرون أن له معنى غير ما يورمه ظاهر اللفظ . .

ثم حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وفتح الباب لتعدى الحدود ، وتلاعبت الشبهات بالعقول ، وأسلم بعض اليهود لبث الفتنة كعبد الله بن سبأ . .

وتوالى الأحداث وكانت الحروب بين المسلمين في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ، وانصدع بناء الجماعة وانفضت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، واقترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين . .

٣ - حلة المشاعل :

يرى الشيخ أن هذه الخلافات السياسية لم تقف في سبيل الدعوة الإسلامية ، ودخل الناس في دين الله أفواجا في الأطراف النامية عن منار النزاع . .

واشتغل العلماء بأصول العقائد والأحكام اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ، ولا ينض فيه من نظر الفمكر . . ومن أشهرهم الحسن البصرى . .

وكانت أول مسألة ظهر فيها الخلاف مسألة الاختيار ، واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية . ومسألة من ارتكب الكبيرة ولم يتب ، ثم امتدت الخلافات إلى إثبات صفات المعاني للذات الإلهية أو تفهيمها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل في معرفة جميع الأحكام الدينية . .

والتحق بالإسلام أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم من أفكار الماتوية وكتب اليونان ، ومن لا دين له من الفرق الفارسية ، فظهر الإلحاد ، وثارَت الشهوات ، وتطلعت وهوس الفتنة في العهد العباسي . .

وظل الأمر كذلك حتى جاء الشيخ أبو الحسن الأشعري في أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف ، وسطاً بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصوله النظر .

وارتاب في أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفروه الحنابلة واستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء كالإمام الجويني والإسفرائيني وأبي بكر الباقلاني وغيرهم ، وسماوا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة . .

فانهم من بين أيدي هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان :

— قوة الواقفين عند الظواهر .

— وقوة الغالبين في الجري خلف ما تزينه الخواطر .

٤ - موقف الفلاسفة :

ثم تحدث الشيخ محمد عبده عن مذاهب الفلاسفة ، وأكد أن العقل محل التكريم من القرآن والسنة ، لكن هؤلاء الفلاسفة غلبهم أمران :
الأول : الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا عن أرسطو وأفلاطون ..

الثاني : الشهوة الغالبة على الناس في ذلك الوقت ، وهو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم في المنازعات التي كانت قائمة بين أهل النظر في الدين ، واصطدموا بعلومهم في قلة عددهم ، مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فالحماة العقائد عليهم .

وجاء الغزالي ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد في كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات واشتدوا في نقده ، فسقطت منزلتهم من النفوس ، ونبذتهم العامة ، ولم تحفل بهم الخاصة ، وكان هذا هو السبب في خلط مسائل الكلام بمسائل الفلاسفة في كتب المتأخرين ، كما تراها في كتب البيضاوي والعضد وغيرهم .

٥ - مذهب الأستاذ الإمام :

وانتهى الشيخ محمد عبده إلى تقرير هذه الحقيقة :
والذي علينا اعتقاده أن الدين الإسلامي دين توحيد في العقائد ، لا دين تفريق في القواعد .

العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه .. وما وراء ذلك فترغات شياطين أو شهوات سلاطين .

والقرآن شاهد على كل بطله ، قاض عليه في صوابه وخطئه ..

الإلهيات :

بدأ الشيخ حديثه عن الإلهيات بتقسيم المعلوم إلى ثلاثة أقسام :
ممكن لذاته ، وواجب لذاته ، ومستحيل لذاته ..

وشرح حكم كل قسم وأكد أن الممكن لا يوجد إلا بسبب
ولا يتعدم إلا بسبب ، وأن وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود
الواجب ، ثم تكلم عن الصفات السمعية التي جاءت على لسان الشرع
ولا يحيلها العقل إذا حملها على ما يليق بواجب الوجود .

ونبه الشيخ إلى أن الفكر في ذات الله وصفاته للوصول إلى حقيقة
الذات والصفات ممتنع على العقل البشرى لانقطاع النسبة بين الموجودين ،
وليس من شأننا أن نبحث في الكيفية ..

ثم انتقل الشيخ إلى الحديث عن أفعال الله جل شأنه ، وبين أنها صادرة
عن علمه وإرادته ، وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ،
ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، وقسم الفرق
الإسلامية في هذا الجانب إلى فريقين :

١ - فريق بالغ في الإيجاب على الله حتى ظن الناظر في مزاعمهم
أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما
عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات ، تعالى الله عن ذلك
علواً كبيراً .

٢ - وفريق نقي التعليل عن أفعاله سبحانه وخلا حتى خيل للمؤمن
في مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلباً ، يرم اليوم ما نقضه بالأمس ،
ويفعل غداً ما أخبر بتقيضه اليوم ، أو خافلاً لا يشعر بما يستتبعه عمله
(سبحانه وبك رب العزة عما يصفون) .

ويرى الشيخ أن الجميع متفقون على أنه تعالى منزه عن العبث في أفعاله والكذب في أقواله ، وأن وجوب الحكمة في أفعاله تعالى تابع لوجوب السكال في علمه وإرادته ، وأن وجوب تحقق ما وعد وأوعد به تابع لسكال علمه وإرادته وصدقه . .

فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه . .

ثم يلخص الشيخ محمد عبده مسألة أفعال العباد في اتجاهين :

الأول : أن المؤمن يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الكائنات ، وأن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد ، تصرفه على مقتضى علمه وإرادته .

الثاني : أن المؤمن يشهد بالبدهة أنه في أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية — قائم بتصرف ما وهب الله له من المارك والقوى فيما خلقت لأجله . .

وعلى هذين الاتجاهين قامت الشرائع واستقامت التسكليف ، أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته ، وبين ما تشهد به البدهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل إليه العقول .

ثم ختم الشيخ محمد عبده مباحثه في الإلهيات بالكلام عن حسن الأفعال وقبحها وأكد أن الإنسان بفطرته يميز بين الجمال والقبح ، ورأى أنه لا مانع شرعا أو عقلا من أن يصل العقل بإنسان ما إلى معرفة الله وصفاته وقدسيتها وجلاله ، والفضائل والردائل التي تؤدي إلى السعادة أو للشقاء بعد الموت . .

لكن ذلك لن يكون حلالاً لعامة الناس ، وقد سلط الله على الإنسان ثلاث قوى هي الذكاء والخيلة والمفكرة ، والناس فيها مختلفون ، تتباين آثارها عليهم .

وليس في سعة العقل الإنساني في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغي أن يفهم ، ثم إن من أحوال الآخرة ما لا يمكن لعقل بشري أن يصل إليه وحده ، لهذا كان العقل الإنساني محتاجاً إلى نبي من جنسه ليفهم منه وعنه ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وقد سماه معيناً يستعين به الإنسان في تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه في الاعتقاد ..

النبوات :

ساق الإمام محمد عبده مجموعة بحوث تحت عناوين :

- الرسالة العامة .
- حاجة البشر إلى الرسالة .
- إمكان الوحي .
- وقوع الوحي والرسالة .
- وظيفة الرسل عليهم السلام .

وتكلم في هذه البحوث عن اصطفاء الله لرسله ، وتأيدهم بالمعجزة القروية بالتحدي ، ونفى الشيخ أن تكون المعجزة من نوع المستحيل عقلاً ، وعدها خاضعة لتاموس آخر طبيعي ، وضعه موجد الكائنات ، غاية ما في الأمر أننا لانعرف هذا التاموس الآخر ،

وذهب إلى أن النهي عن الأكل من الشجرة وأكل آدم منها كأنهما
رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام ، أو مظهران من مظاهر
النوع الإنساني في الوجود ١١

ثم شرح أحوال العالم قبل الإسلام وما شابه من مشارب الوثنية
وضلالات الإباحية ، وويلات الحروب ، وذنس الأخلاق ، فكان من
رحمة الله أن أرسل فيهم رجلا منهم ، يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ،
ويعده من القوة بما يكشف تلك الغمم ، فولد محمد بن عبد الله صلى الله عليه
وسلم في الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول عام الفيل (٢ من أبريل سنة
٥٧١ م) .

وتكلم الشيخ عن تواتر القرآن وحفظه وسلامة نصه ، وأكد أن
الإسلام جاء بالتوحيد الخالص ، وحقق حرية الإنسان ، وأنهى على
التقليد ، وصاح بالعقل صيحة أزعجت من سباته ، وحقق الوحدة في الناس
ونص على أن دين الله في جميع الأزمان واحد ، وهو أفراد الله بالعبودية
والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه ، وأن
اختلاف الشرائع بين الأديان الصحيحة — سابقها مع لاحقها — مصدره
رحمة الله ورأفته في إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة ،
والملائمة للزمان ..

ترقى الأديان بترقى الإنسان :

يرى الشيخ أن الأديان جاءت والناس في معرفة مضالهم في طور
شبه بطور الطفولة للناس . الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما
وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمه ، وأن
يتناول بذهته من المعاني ما لا يقرب من حسه .

فلم تخاطب تلك الأديان الناس بما يرقى إليه سلم البرهان ، وسارت بالقرم وهم عيال الله سير الوالد مع ولده في سداجة السن ، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو بصره ..

وانتهى الشيخ إلى أن الإسلام آخر الرسالات وأن محمداً خاتم الأنبياء لأنه استجمع للإنسان عند بلوغه وشده - حرية الفكر واستقلال العقل وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ، ولم يدع أصلاً من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها .

انتشار الإسلام:

وتحدث الشيخ عن انتشار الإسلام بسرعة لم يهد لها نظير في التاريخ لما امتاز به المسلمون من عدل وما في دينهم من عقل ..

ثم أورد شبهة تلخص في أن المسلمين اليوم قد تخلفوا وتفرقوا ، وفقدوا سلطانهم ، وصاروا إخوة أعداء . مع أن الإسلام دين الوحدة والرقى والحضارة ..

وأجاب الشيخ بأن الاجتماع الإنساني شاهد بأن الإسلام دواء ناجح ، ظهر نجاحه في كل مراحل التاريخ التي عاش المسلمون فيها حنفاء لله غير مشركين به ..

فالمشكلة تكمن في المسلمين وليست في الإسلام ..

وختم الشيخ رسالته بضرورة التصديق بما جاء به محمد ﷺ بعد أن ثبت بالدليل القاطع أنه نبي يوحى إليه ..

ودأى الشيخ أنه يجب الإقتصار في الاعتقاد على ما هو صريح في الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعي بظني ..

ثم أشار إلى مسألتين هما الرؤية وكرامة الأولياء ، ورأى أن الخلاف في الرؤية يمكن أن يزول لأن كلا الفريقين يمنع الرؤية البشرية المعهودة بحواسنا المعتادة .

ورأى الشيخ أن مجرد جواز صدور عارق للعادة على يد غير نبي مما تناوله القسرة الإلهية ، ليس موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، ولا يجب شرعا الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولي لله معين ..

وذهب الشيخ إلى أن شرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شيء يس التزيه وعلو المقام الإلهي عن مشابهة المخلوقين .

فإن ورد ما يؤم التشابه في متواتر ووجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله في العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة .

• • •

ولنا ملاحظات :

أولا : إن رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده خلاصة فكر وليست دراسة بحث ، فهي رؤية نقدية تقدم رأى الشيخ في قضايا الخلاف العقدي بين المسلمين .

أما الدراسة وتفصيل المذاهب واستعراض الأدلة والترجيح بينها فلم يعمد إليه الشيخ ولم يحرص عليه .

ولهذا تكاد تخلو الرسالة من نصوص القرآن والسنة ١١

والآيات القرآنية الموجودة في الرسالة - على ندرتها - سبق أغلبها على لجنة التضمين في الأسلوب ، وبعضها عبر عنه بالخبر دون أن يسبق بكلمة قال الله تعالى ..

أما الأحاديث فقد تقرأ عشرات الصفحات ولا يصادفك شيء منها .

ثانياً : شيء عجب أن يتكلم الشيخ عن رسالة التوحيد فيحصرها في الإلهيات والنبوات ، ويعرض إعراضاً تاماً عن السمعيات مع أن الارتباط عضوي وكامل بين هذه الثلاثة .

وعندما عرف الشيخ علم التوحيد أفقلاً أيضاً جانب السمعيات ، وحصر التعريف فيها يجب ويستحيل ويجوز في حق الله تعالى وحق رسوله عليهم السلام .

ولم يأت ذكر لليوم الآخر في طول الرسالة وعرضها اللهم إلا كلمات قليلة عند الحديث عن حاجة البشر إلى الرسالة والنبى الذى سماه معينا ، قد ذكر أنه ليس في سعة العقل الإنسانى في الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه في تلك الدار الآخرة .. ثم إن من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحده ، وهو تفصيل اللذات والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال .

ثالثاً : تأثر الشيخ تأثراً كبيراً بنظرية تطور الأنواع للفيلسوف الإنجليزي داروين ، وملكت عليه عقله وفكره فلوى نصوصاً ، ورفض أخباراً ، وتناول مواقف على غير وجهها الصحيح .

فقال عن النهى عن الأكل من الشجرة ومعصية آدم بالأكل منها ..

كأنهما ومزان إلى طور من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الإنسانى في الوجود .. ۱۱

وقد فصل موقفه هذا تفصيلاً تاماً في تفسيره لسورة البقرة ، وتجراً جرأة كبيرة على عالم الملائكة والجن والإنس ..

كما أن دعواه بأن الأديان ترقى بترقى الإنسان وأن البشرية بدأت بالسذاجة والحس وانتهت إلى العقل والرشد - هي دعوى متأثرة بنظريات تطور العقيدة عند الغربيين، وهي تصادم الدين والعقل والتاريخ..

فالدين هو الدين في بدء الإنسانية وفي ختامها، أصوله واحدة، واستنض الرسل في كل زمان ومكان العقل والحس معا.

ولم يكن الإنسان في فترة من التاريخ فاقدا للعقل أو بلا وعى فكري ودراسة تاريخ الحضارة في مصر القديمة وبلاد الرافدين والهند والصين تؤكد عمق العقل الإنساني التي صاغها.

رابعا: الهدف الذي سعى إليه الشيخ في رسالته هو تجاوز نقاط الخلاف وتجميع الكلبة حول جوانب الاتفاق..

ورأى الشيخ في كثير من مباحثه أن الخلاف نشأ من غلبة التعصب وعدم صدق الرؤية.

وشبه الفرق المتخالفة بالإخوة الأعداء ووصف اختلافاتهم بمقاتلات الحق الذين اختبطوا اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق في السير إلى مقصد واحد، حتى إذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر...

فظن كل أن الآخر هدو يريد مقارعة على ما يده، فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجادلون حتى تساقط جملهم دون المطلب.

ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشدي إلى من بقى وهم الناجون..

ولو تعارفوا لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا، ولو اتقاهم الغاية إنعروا، بنور الحق مهتدين^(١)..

خاتمة

وإلى هنا نكون قد مهدنا لدراسة العقيدة الإسلامية ؛ وقدما آفاقا للبحث والنظر، وعرفنا أهمية دراسة العقيدة ، ومباحثها ، ونشأة العلم وتطوره ..

وقررنا منهج الإسلام في تأسيس اليقين ، وتأصيل الإيمان ..

وأكدنا أن العقيدة الإسلامية صوت الفطرة ، ودعوة الأنبياء ، والدين الخالص لله رب العالمين ..

وعرضنا نماذج لمؤلفات قدمها العلماء لدراسة العقيدة ..

وعلينا أن نواصل مسيرة العطاء العلمي ، ونصي الله أن ييسر لنا دراسات في الإلهيات والتبوات والسمعيات ، وأن ينفع بها ، وأن يجعلها خالصة لوجه الكريم ..

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ..

كتب للمؤلف

في العقيدة

- ١ - في نور العقيدة الإسلامية .
- ٢ - أدب الحديث عن الله .
- ٣ - علم التوحيد للشهادة الإعدادية الأزهرية .
- ٤ - التمهيد في دراسة العقيدة الإسلامية .
- ٥ - الإلهيات في العقيدة الإسلامية .

في الفلسفة

- ٦ - الروح في دراسات المتكلمين والفلاسفة .
- ٧ - المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه .

في الآيات

- ٨ - المدخل لدراسة الأديان .
- ٩ - أصول النصرانية في الميزان .
- ١٠ - أوروبا والنصرانية .
- ١١ - المسيح ورسالاته في القرآن .
- ١٢ - عبادة الشيطان في البيان القرآني والتاريخ الإنساني .

في الفرق الإسلامية

- ١٣ - قضية التكفير في الفكر الإسلامي .

- ١٤ — الحوار بين الجماعات الإسلامية .
١٥ — مقدمة في دراسة الفرق الإسلامية .

في السيرة النبوية

- ١٦ — الرسول في رمضان .
١٧ — الرسول حول الكعبة .
١٨ — الرسول والوحي .
١٩ — الرسول وقضايا المجتمع .
٢٠ — الرسول والمواقفات .

في الشريعة الإسلامية

- ٢١ — محاور تطبيق الشريعة .
٢٢ — نحو دستور إسلامي .
٢٣ — أخلاق الأمرة المسئلة .

تحقيق مؤلفات فضيلة الدكتور سيد أحمد رمضان المسير

— رحمة الله تعالى —

- ٢٤ — السنة مع القرآن .
٢٥ — السنة المطهرة .
٢٦ — إلزام القرآن للباديين والمليين .
٢٧ — دراسات قرآنية .

الفهرست

الصفحة	الموضوع
٢	• المقدمة
٩	• المبحث الأول : بين يدي الموضوع
١١	• أهمية دراسة علم العقيدة
١٢	— العلم باقّه تعالى أشرف العلوم
١٣	— بيان العقيدة الصحيحة وإقامة الحجة عليها
١٤	— مواجهة شبهات المبطلين
١٤	— علم العقيد أساس العلوم الشرعية
١٥	— العقيدة وإخلاص النية
١٨	• مباحث علم العقيدة
٢٥	• أسماء علم العقيدة
٢٥	— علم التوحيد
٢٦	— علم الكلام
٢٧	— علم أصول الدين
٢٧	— علم الفقه الأكبر
٢٨	— علم العقيدة
٣١	• المبحث الثاني : نشأة علم العقيدة وتطوره
٣٣	• مرحلة العهد النبوي
٣٧	• مرحلة الصراع العسكري
٤٣	• مرحلة الصراع السياسي
٤٧	• مرحلة الصراع الفكري
٥٥	• مرحلة العصر الحديث

الصفحة	الموضوع
٥٥	— الاتجاه الأشعري
٥٦	— الاتجاه السلفي
٥٧	— الاتجاه الاعتزالي
٥٨	— كلمة أخيره
٦٣	• المبحث الثالث : الإسلام وتقرير العقائد
٦٥	• المعجزة العقلية
٧١	• أصول التفكير
٧٥	• المعرفة والتقليد
٨٣	• مصادر العقيدة
٨٣	— العقل
٨٤	— القرآن
٨٥	— السنة
٨٩	— أقوال السلف
٩١	• الحكم وأنواعه
٩١	— أقسام العلم
٩٢	— الحكم الشرعي
٩٣	— الحكم العقلي
٩٧	• المبحث الرابع : خصائص العقيدة الإسلامية
٩٩	• صوت الفطرة
١٠٠	— ماذا تقول اللغة
١٠٠	— ماذا يرد المنطق
١٠٠	— ماذا تريد العقيدة
١٠٩	— حديث الفطرة
١١٣	• دعوة الأنبياء

الصفحة	الموضوع
١١٧	• توحيد القرآن
١٢٣	• الدين الخالص
١٢٣	— المراد بالدين الخالص
١٢٥	— مفهوم العبادة
١٢٦	— المعاني البشرية
١٢٧	— نماذج شركية
١٢٩	• آفاق عقيدة التوحيد
١٢٩	— أفق الاسم
١٣١	— أفق العلم
١٣٣	— أفق الوجدان
١٣٥	— أفق الاجتماع
١٣٧	— أفق الذكر
١٣٩	• المبحث الخامس : قراءة في كتب العقيدة
١٤١	• التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل للإمام ابن خزيمة
١٤٣	— المؤلف وسبب التأليف
١٤٥	— الصفات الخيرية
١٤٨	— كلام الله تعالى
١٤٨	— الرؤية
١٥٠	— الشفاعة
١٥٠	— حكم مرتكب الكبيرة
١٥٢	— ملاحظات
١٥٥	• المواقف في علم الكلام لعبد الدين الإيجي
١٥٧	— المقدمة

الصفحة	الموضوع
١٥٩	— الموقف الأول : في المقدمات
١٦١	— الموقف الثاني : في الأمور العامة
١٦٢	— الموقف الثالث : في الأعراض
١٦٥	— الموقف الرابع : في الجواهر
١٦٦	— الموقف الخامس : في الإلهيات
١٦٩	— الموقف السادس : في السميات
١٧٢	— خاتمة المواقف
١٧١	— تعقيب
١٧٥	• شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي العر المشق
١٧٧	— تقديم
١٧٨	— قضية التوحيد
١٨١	— نبوة سيدنا محمد ﷺ
١٨٢	— رؤية الله تعالى
١٨٣	— مسائل عقديّة
١٨٤	— ملاحظات
١٧٨	• رسالة التوحيد للأستاذ الإمام محمد عبده
١٨٩	— المؤلف وسبب التأليف
١٩٠	— لمقدمات
١٩٠	(أ) علم التوحيد ومنهجه
١٩١	(ب) عصر الخلافة
١٩١	(ج) حلة المشاغل
١٩٣	(د) موقف الفلاسفة
١٩٢	(هـ) مذهب الأستاذ الإمام

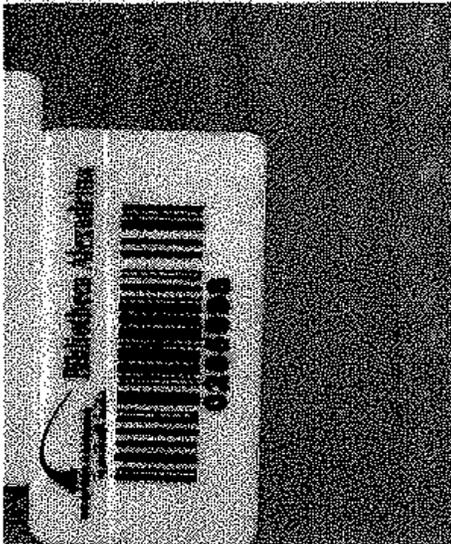
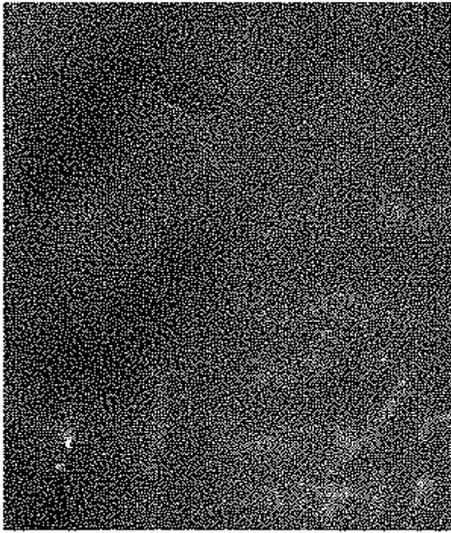
الموضوع	الصفحة
- الإلهيات	١٩٤
- النبوات	١٩٦
- ترقى الأديان بترقى الإنسان	١٩٧
- انتصار الإسلام	١٩٨
- ولنا ملاحظات	١٩٩
• خاتمة	٢٠٣
• كتب للمؤلف	٢٠٥
• الفهرس	٢٠٧

رقم الإيداع بدار الكتب

١٧٤٨٥ / ١٩٩٨ م

L.S. B. N.- 977 - 19 - 7802 - 0

١٩٩٨ / ١٢ / ٧١ في



To: www.al-mostafa.com